نجمة المساء

تأتى فى الموعد

اســـم العمـــل : نجمـــــة المســـــا

النـــــــوع : روايـــــــــــة

تـــــــأليف : محمـــــد جبريـــــل

تصـــميم الغـــلاف : أحمـــــد الملـــــواني

إخـــراج داخلـــي : عبـــــدالقادر فـــــايز

الطباعـــــــة : اتيليـه تـاتش – المحروسـة

الناشـــــــر : الـــدار للنشـــر والتوزيـــع

المـــدير العـــام : محمـــد صـــلاح مـــراد

تليفـــــــون : ٠١١٢٥٨٠٠٤٦٧

البريـد الإلكترونـي : eddar_press@yahoo.com

فـــيس بـــوك : www.facebook.com/eldarpublish

رقـــم الإيـــداع : ٢٠١٦/٢٣٥٠٥

التـــرقيم الـــدولي : I.S.B.N.: 978-977-702-165-4

نجمة المساء

تأتى فى الموعد

رواية

محمد جبريل

٢٠١٦

ربما كان النور عذاباً جديداً

من يدرى كم من أشياء ستظهر

كافافيس

إلى عادل الصبروتى

الحنين إلى الطفولـة

انتقلت – باختيارى – إلى القاهرة، التقارير، المذكرات، البلاغات – لا أعرف التسمية الصحيحة – طاردتنى، جعلت ترقيتى مستحيلة، الوقوف محلك سر هو أقصى ما أحصل عليه، سافرت وراء التصور أن الالتحاق بعمل آخر ربما يوقف ذلك كله، أشعر بحاجة إلى الاختفاء من المطاردة، والتقاط أنفاسى، ومراجعة ما حدث.

متى؟ وكيف ينتهى؟

طالت وقفتى حتى رفع المهندس سمير العربى، رئيس النداء الآلى، رأسه من الأوراق على مكتبه:

– هل أنا بليد؟

هز رأسه دلالة عدم الفهم.

قلت فى لهجة معتذرة:

– هل أقصر فى أداء عملى.

– أعتبرك ذراعى الأيمن!

– لماذا إذن لا أحصل على فرصتى فى الترقية؟!

وهو يعود إلى الأوراق بين يديه:

– اسأل المهندس طنطاوى!

لماذا أدفع ثمن أخطاء غيرى؟

الحجرة تشغى بالموظفين، بعدها عن الصالة الواسعة يغرى

بالجلوس، تناول الساندوتشات، احتساء الشاى، قراءة الصحف، تمتد المناقشات إلى أحوال السياسة، أعرف ما يتكلمون فيه، عندى آراء، لكننى أطبق درس الصمت بصرامة، أنصت إلى اختلاط عبارات المديح والإعجاب والسخط والإدانة، عرفت أن التقارير تسود بأيدى مجهولين، تنعكس سطورها على حياتى.

تطل من الأعين نظرات اتهام، لا أعرف متى تواجهنى كلمات الإدانة، أحيا التوقع والتلفت ومراقبة التصرفات، أشعر بالمطاردة، ما يبدو مخفياً أراه أمامى وخلفى، أحاول ترويض نفسى على فهم ما قد يبدو غريباً.

أحاول أن أسلم تفكيرى إلى لا شيء، حتى تبتعد النظرات القاسية، لا أعرف كيف أقلب الأمر ولا كيف أتصرف، تظاهرت بالتجاهل واللامبالاة، كمن لا شأن لى بنظراتهم التى تخترقنى.

لجأت إلى قهوة رأس التين، أبحث عن الطمأنينة فى الصخب المتلاغط من حولى، أرد التحية على زبائن قدامى، كانوا زملاء لأبى فى مصلحة الموانى والمنائر، جالسوه فى القهوة حتى رحل، أطلب – فى جلستى المنفردة – مجرد المؤانسة، أنفاس الناس فى الحركة من حولى، وإن حل فى داخلى إحساس موحش بالفراغ، أشعر – وسط الزحام – أنى وحيد فى العالم، أخذت على نفسى عهداً ألا أدخل فى

مناقشة تلامس السياسة، لا شأن لى بما عدا الوظيفة، ذكرنى زميل الوردية عبد الحافظ بجاتو بالمثل: "ابعد عن الشر، وغنّى له"، السياسة مؤذية، أظل صامتاً، ساكناً، والمناقشات تعلو عن التضخم، وانهيار الجنيه أمام العملات الأجنبية، وانقطاع الكهرباء المتكرر، وغلاء فواتير الماء، وتذبذب مستوى الاتحاد السكندرى، والعشوائيات، والزحام. أرفض الدخول فى مناقشات، أو إبداء ملاحظة فى قضية ما، أرفض القوانين التى لا أقتنع بها، لكننى لا أفكر فى أن أخرج عليها، أخشى الاحتمالات والنتائج، ما أراه لا يعنينى، أوثر الحديث إلى نفسى، يتصاعد من داخلى ما يشرد بى فى آفاق لا نهاية لها.

أوقع على ساعة الميقات فى موعد بداية الوردية، أو قبله، تضايقنى عبارات اللوم، ومذكرات لفت النظر والخصم من المرتب، ربما تجر ما لا يخطر ببالى من جزاءات.

أحرص، فلا أتصرف بطريقة خاطئة. لمداراة الخطأ، أسخف نفسى، أو أنى قصدت الدعابة. أراجع النظرات: هل تضعنى فى موقف الإعجاب، أو الكراهية، أو الإهمال فلا تلتفت ناحيتى؟

أكتم ميلى إلى الكلام وقول ما أعرفه، يداخلنى خوف من أن الحياة ستكون أصعب، يطول تحسبى قبل أن أنطق، أتدبر الكلمات، وقعها، تأثيرها فى نفس من أكلمه، إن تكلمت، تجنبت كلمات قد تفسر بمعان

تضمر الفضح، كأنها الطعم فى السنارة المتدلية داخل الموج.

أعود إلى نفســى، أراجع ما قلته، أعيد الحوار، فأتذكر ما نســيته، أرد على الأسـئلة التى واجهتها بالصـمت، أسـتبدل التعبيرات الواضـحة بـالكلمـات التى أنطقهـا الارتبـاك. ثمـة مـا لا أتبينـه إلا بعـد أن يظهر، ويملى إرادتـه، هو مخفى فى داخلى، يبين عن ملامحـه، ويهمس، فى لحظة لا أتـوقعها، عندما يقتحمنى الارتباك، أو الخوف، أشعر بمغص، أو برغبة فى التبول.

قال لى حميدة جرسون القهوة:

– أرفض أن أكون جاسوساً.

حدجته بنظرة تتحسس ما قاله:

– ماذا تعنى؟

– يحرضــوننى أن أراقب تصــرفاتك، وأنقل ما تقوله فى جلســاتك الخاصة.

لمحت التردد فى عينيه:

– من هم؟

– المهندس طنطاوى.

قلت مستغرباً:

– أجلس فى البيت بمفردى.

رسم على وجهه ملامح التأثر:

– البلد يعانى ظروفاً صـــعبة.. الريس يهمه التوريث، والمعارضـــة قوية.

أزمعت ألا أبالى، أو حتى أدافع عن نفسى:

– لا شأن لى بالمعارضة ولا بالسياسة.

– أظن أنهم قلقون من ترددك على جامع طاهر بك.

أكرهت نفسى على الابتسام، حتى لا يفطن إلى ما أعانيه:

– هل منعوا الصلاة؟

– لا تفلت حتى صلاة الفجر.

لاحظت أنه يسرف فى التلويح بيديه، والتعبير بأصابعه، قال:

– الإسلاميون أول المعارضين للتوريث.

ازدردت ريقى فى خوف:

– حتى هؤلاء لا أعرفهم.. لا أعرف أحداً.

ثم وأنا أحاول أن أتماسك، فلا ينعكس الخوف على ملامحى:

– هل رأونى أجالس أحداً من المصلين؟

كأن كل ما حولى تألب على حياتى، تثيرنى النظرات والأســـئلة والعبارات الملمزة.

لا أعرف ماذا يدبرون؟ ما المؤامرة التى يدبرونها؟

حرصت أن تكون تصرفاتى معلنة، فى ضوء النهار، لا أحتمى بظلمة، ولا حتى ظلال. اخترت القهوة للفرار من شبهات التردد على الجامع.

أطمئن إلى مشاعرى وتصرفاتى، أعرف ما أفعل، ما يؤلمنى تصرفات الآخرين، ونظراتهم أيضاً، تشغلنى الهمسات بالوشاية والشائعة والوقيعة، أعانى المراقبة والمتابعة والمطاردة.

حاولت أن أتغلب على ذلك كله بالسير، أسير – بخطوات متسارعة – على الكورنيش، أنظر إلى الأمام، لا أتلفت، لا تجذبنى حتى المشاهد التى تأخذنى غرابتها.

لم يفقد الرجل إصراره على المراقبة والمتابعة، كل ما يمتلك من انتباه يتجه به ناحيتى، يراقب، يلاحظ، ربما تابع خطواتى.

ظللت على ملاحظتى لتصرفاته.

أشعر أن أمراً سوف يحدث، لا أخمن طبيعته، ولا أعرف مصدره، أنا لم أرتكب جريمة لأحاسب عليها، هو يعلم براءتى، لكنه يحاول اتهامى بما لم أفعله. لم يعد أمامه سوى التخلص منى، إبعادى عن طريقه، قد يلفق لى تهمة تؤذينى.

عرفت أنه كثير السؤال عنى: متى أدخل القهوة؟ لماذا اخترتها بالقرب من البيت؟ من أجالس؟ ما نوعية الآراء التى أطرحها، أو

أناقشها؟

لم يكن يرفع عينيه عنى، عاودنى الإحساس بالخوف من انكشاف لحظة أتوقعها، يهتف فيها بنبرة اتهام: هذا أنت.

تستعصى الكلمات، فلا أجد ما أرويه، حقيقة ما جرى، أحيا التوقع، وأنتظر اللحظة القاسية، أجدنى دائماً فى حالة دفاع عن النفس، ألتقط البدايات فى أفعال الآخرين، أتأمل المشاعر فى داخل نفسى، أعزف – بحكم طبيعة لا أقوى على مغالبتها – عن اتخاذ المواقف التى أومن بها.

قال المهندس طنطاوى:

– كل ما أطلبه أن تكتب لى – كل أسبوع – بضعة أسطر عما يجرى فى السنترال.

لم يجاوز صيغة الأمر، لا يضحك، ولا يبتسم، كأنه لا يجد وقتاً لذلك.

وأنا أحاول لملمة مشاعرى:

– لا أخالط أحداً من زملائى.

وأطرقت حتى لا تلتقى عيناى بعينيه:

– ولا أعرف كتابة التقارير.

– لا نطلب تقارير. نريد ملاحظات. كلمات مما تكتبها فى أجندتك

الصغيرة.

دفع لى بورقة عليها أرقام:

– أدخل على هذه الخطوط، لا تنشـــغل بما فى المكالمات، أبلغنى بمن يكلم من.

وضرب على المكتب براحته:

– هذا كل ما أريد.

تداخلت نظرات الشـــك والإدانة، لم أدر إن فعلت ما يســـتحق هذه النظرات؟

فى داخلى رغبة للرد بما يســـكته، أفتش عن الكلمات، تملأ فمى، لكن الشجاعة تخوننى، فأظل صامتاً.

عانيت – لإحساسى بأنى مراقب – ارتباكاً دائماً، أتلعثم فى الكلام، أتحسس أى تصرف، لا أجد الشجاعة التى أعبر بها عن رأى قد يثير ضيق محدثى.

اســـتغرقتنى الحيرة، إلى حد العجز عن فهم ما إذا كانوا يخططون لإدانتى، أم أنى أتصرف بما يريب؟

يربكنى الخصـــام لكل ما حولى، الأعين المتلصـــصـــة، والأفواه الهامسـة، والآذان المتنصـتة، والسـعى بالوقيعة، والتلميحات، والغمزات، والأحاديث الجانبية.

أشـعر بالأعين المتسـللة فى بدايات خطوط النداء الآلى، لا أراها، لكنها ترانى، تحاول التقاط ما تجد فيه ذنباً، تواجهنى باتهام ارتكابه، عدد لى عبد البصـير سـلامة أسـماء المعدات التى أبدى المهندس طنطاوى شكه فى تعرضـها للسـرقة، لا أعرف أشـكالها، ولا رأيتها من قبل.

لو أن أحداً صدق التهمة، ومال إلى الإدانة.

أفكر فى الفرار، لكن الحيرة تأخذنى إلى طرق متقاطعة، ومتداخلة، ومسدودة.

توقف الأولاد فى السـاحة المواجهة لزاوية خطاب عن لعب الكرة، أدركت – من نظراتهم المستغربة – أنهم لاحظوا تحرك شفتىّ بكلمات، كأنى أحدث من لا يرونه. كنت أعد ما أفسـر به للمهندس طنطاوى وقفتى خلف النافذة، حجب الزجاج أصوات المتظاهرين، لكن قبضـاتهم المتوعدة، وصيحاتهم الغائبة، وشت بما يطلبون.

لم أكن أتصور أنى سأصعد الدرجات الرخامية إلى الباب العريض للمرسـى أبو العباس، أدخل الصـحن الواسـع، تعلوه قبة من الزجاج الملون، وتنيره نجفة هائلة مدلاة من السقف، وعشرات اللمبات المبثوثة فى الجدران والزوايا، أميل إلى اليسـار، الحاجز المعدنى يحيط بالمقام ذى الغطاء الأخضـر، أردد ما قالته لى أم عربى عاملة البوفيه من

عبارات شكوى الظلم الذى نغص حياتى، دون أن أعرف له سبباً.

قلت ما لقنته لى أم عربى، ثم ألقيت بقميص – لم أتعمد اختياره – فى أرضية المقام. كانت هى المصدر الذى أبوح له بما أعانيه.

داخلنى قلق وخوف ومشاعر أخرى مبهمة. حدست أن الداعى لهذه المشـــاعر، هو الخوف من التـأنيـب والزجر والتعنيف والملاحظـات القاسية، الأسى يلفنى لأنى أستنفد قدراً هائلاً من طاقتى، حتى أخفى ما أعانيه عن الآخرين، تمنيت أن أترك البيت، أسـير فى الشـوارع، أسـاوم باعة شارع الميدان، أجلس إلى زملاء العمل، وجلساء القهوة، والمصلين فى المساجد، دون أن أستسلم للخوف.

قل ترددى على قهوة رأس التين، ولم أعد أخـالط المترددين عليـه، حتى من ألفت مجالســتهم. أكتفى بالإنصـــات إلى ما يقولون، أكتم ما أستطيع أن أبدى فيه رأياً.

حين رويت لســعد ما أعانيه، أحنى رأســه – لحظات – ثم رفعها، واجهنى بما نقل الخوف إلى داخلى.

أضاف إلى خوفى قول سعد فى لهجة محذرة:

– توقع أن يلفقوا لك تهمة.

تظاهرت باللامبالاة، لكن الكلمات نقشـت فى نفســى تأثيراً قاسـياً. تشـــابكت، واختلطت، مشـــاعر الإحباط والإخفاق والإحســـاس بالظلم

والضـــياع وعدم الثقة والفشـــل والفقد واليأس واللاجدوى والخوف من المجهول.

حدجنى سعد بنظرة اتهام:

– مشكلتك هى الافتقار إلى قوة الإرادة.

وأنا أغالب التوتر:

– هل أضرب الخلق؟

– أقصد افتقادك القدرة على اتخاذ القرار.

لم يترك لى وقتاً أبحث فيه عن الكلمات المناسبة، أضاف قوله:

– إذا لم تكن قادراً فى لحظة ما على اســـتخدام العنف فأنت لا تستحق حياتك.

ونظر إلى رصات الكتاب، وتناثرها داخل الحجرة:

– اقرأ لنفسك ولى.

وأشاح بيده:

– ليس لى فى القراءة.

والتوت شفتاه باستياء:

– بدلاً من أن ننحى باللائمة على الآخرين.. لماذا لا نراجع ما نفعله؟

تراجعت لاقتراب نظرته الغاضبة:

– لو أنك اســـتبدلت بالقراءة حرصـــاً على أن تنال حقك.. ربما ابتعدت عن متاعب الوظيفة الصغيرة.

أعرف أنـه موظف إدارى بكليـة الطـب، لكنـه لم يكن يحـدثنى عن عمله، والمتاعب المماثلة لما أواجهه، لا أتذكر أنه طلب نصيحة.

أزمعت ألا أكون متسامحاً مع أحد، ولا حتى مع نفسى. الصح هو ما ســـأفعله، لا يعنينى رد الفعل، أتكلم بما حرص الخائف فى داخلى على إســكاته، لا قوة فى العالم تســتطيع إرغامى على فعل ما لا أقبله، ما لا أحبه.

شردت فى قول سعد:

– لماذا لا تبحث عن عقد عمل فى الخارج؟

وأنا أغالب ارتباكى:

– مؤهلى متوسط.

واسترقت إليه نظرة متفحصة:

– كبرت على السفر.

– لم تبلغ الأربعين، والدبلومات مطلوبة.

قال لى المهندس باسم العقيلى:

– ما رأيك فى القاهرة؟

– زحام!

– أقصد رأيك فى العمل بالقاهرة؟

تهيأت للرد، لم أجد الكلمات التى أحتاجها:

– أنا ؟!

– لدينا طلب من موظف يطلب العمل فى الإســـكندرية.. ظروف عملكما متشابهة.

وداعب دملاً أسفل ذقنه:

– خذ قرارك.

لم أضـــيع وقتاً فى الاســـتغناء عما لا أحتاج إليه، ومض فى بالى حنين إلى فتاة لا أعرفها، ألتقيها فى القاهرة، أحبها وتحبنى، تحســـن الإصـــغاء والفهم، ترفض المواقف المفاجئة والمتقلبة، تملك من الطيبة والحنان ما أتوق للعيش فى ظله.

***

لم يكن يوم وصولى إلى القاهرة يوماً جيداً.

قال لى السائق: تاكسى.

كنت أريد " تاكســـى " بالفعل، فى يدى حقيبتان، حقيبة ثيابى الشـــخصـــية، وحقيبة الكتب التى اخترتها من مكتبتى، وثلاثة أكياس بلاســتيكية. أقلنى التاكســى إلى شــارع الأهرام بمصــر الجديدة. قبلت عرض الموظف الذى بادلنى موضــعى أن يتيح لى اســتئجار شــقته فى

القاهرة.

قال السائق:

– عشرون جنيها!

أهملت نصيحة بألا أدفع أكثر من عشرة جنيهات.

الباب من الحديد المنقوش تعلو به درجتان عن الرصيف، تفضى السلالم – فى المدخل – إلى طرقة واسعة، لجدرانها أفاريز من المصيص، فى المواجهة بابان متجاوران، إلى اليمين باب مغلق، على بابه لافتة باسم عبد العليم بكرى، وقف البواب على مدخل ما بدا أنه حجرته. أشار إلى الباب المفتوح، على اليسار، عرفت أنه باب الشقة التى سأستأجرها، يلاصقها سلم يصعد إلى الطوابق العليا.

لم أحب اللون البمبى الذى اختاره النقاش لطلاء الصالة، فكرت فى أن أشير عليه بلون آخر، صوته المحمل بالعنف، دفعنى إلى كتم ما اعتزمت قوله.

حاولت – فى الأيام التالية – أن أزيل ما على الجدران من بقايا طلاء وبقع وخطوط، وأزيل الغبار من زجاج النوافذ.

اســتعدت – وأنا أطيل النظر إليها – معنى الحنين: البعد، الغياب، الفقد، الوحشـــة، التوقع، تمثل ذلك كله فى وقفتها الســـاكنة على باب الشـقة، ما بين العاشـرة والثانية عشـرة، ملامحها أليفة، داخلنى إحسـاس بأنى رأيتها من قبل.

أين؟

ربما فى شـــارع بغداد، أو شـــارع إســـماعيل رمزى، أو فى ميدان الجامع، أو أمام محال إبراهيم اللقانى وميدان روكسى.

منار؟

تلفتت حولها بتلقائية:

– اسمى مها..

وأشارت إلى فوق:

– نحن فى الطابق العلوى.. سقطت فانلة فى المنور.

أفسحت لها الطريق.

تملكنى ما يشبه الذهول، تيقظت فى نفسى مشاعر تصورت أنها لم تعد موجودة، حلت مشـــاعر أخرى فرضـــتها وقائع، وناس التقيتهم، ومصاعب واجهتها. غابت اللحظات القديمة، نفضتها الذاكرة.

تبدلت الأحوال، منـار كـأنهـا حلم بعيد، يداخلـه مـا أذكره، ومـا لا أذكره، ما ثبت فى الذهن، وما أنفض رأســـى لأتأكد إن كان قد حدث

بالفعل.

لماذا نسيت منار كل تلك السنوات، ثم تذكرتها الآن؟

لماذا ذكرتنى بها هذه البنت؟

بدت السنوات الماضية مثل حلم غيبه الصحو، هأنا أصحو على ما لم يغب عن حياتى. عرفت أن وجهها ظل مطبوعاً فى ذاكرتى، لم يختلط بوجوه أخرى، ولا غيبه النسيان.

منار.

كانت فى السن نفسها، وكنت فى السادسة عشرة، أو أقل.

وجدتنى فى صباى، وطفولتها.

كنت قد نسيت تلك الفترة، غابت عن حياتى، اختفت من منطقة الوعى تماماً، بدت – فى محاولتى استعادتها – مشوشة، الأب موظف بوزارة التموين، منير اسمه الأول، لا أذكر بقية الأسماء، الأم تفيدة لا تعمل، البنات الثلاث، صغراهن منار، يفصلها أزيد من عشر سنوات عن البنتين اللتين تكبرانها، البنت الوسطى فكرية، لا أذكر اسم البنت الكبرى.

أدركت أنى لم أنسها، ليس التكوين الجسدى وحده، ولا ملامح الوجه، وإنما المفردات والتعبيرات والعينين اللتين تبدوان كالمغمضتين حين يستغرقهما الكلام. أكثر من الأسئلة، أطيل فى الكلام، أحرص أن

تكون جليستى، فلا تتركنى، تستهوينى طريقة كلامها، تلجأ إلى يديها فى التعبير عما تريد قوله، تنطق القاف كافاً، والراء غيناً، عندما تضحك، يهتز كل جسدها.

أهملت النظرة اللائمة فى عينى أمى:

– العب مع بنت فى سنك.

أجد فى استجابة منار لصداقتى، ما يأخذنى فى عوالم الخيال، أخلقها لنفسى، أشياء كثيرة تلوح لى، لا أعرف كيف ألتقط طرف الخيط، ماذا أريد تماماً، إذا لم أجد أشياء جميلة، فإنى أخترعها، أصر أن تكون الدنيا من حولى جميلة، مبهجة.

بلغت السن التى تشحب فيها الرغبة، ربما ألتفت إلى الملامح الجميلة، لكنها لا تثيرنى، الرغبة ساكنة، صامتة، لا تبوح إلا فى أحيان متباعدة، مثل الإناء الذى يتقاطر فيه ماء المطر حتى يمتلئ، نظرة هذه الفتاة ألغت كل ما أعددت له نفسى، لا تشبه منار فى ملامحها، وإن تشبهها فى جسد المرحلة بين الطفولة والبلوغ، أذكر لدغة فى صوت منار الهامس، السرسعة عالية فى صوت الفتاة، بشرة منار البيضاء تختلف عن البشرة المائلة إلى السمرة، الأنف الدقيق المنمنم يختلف عن الأنف الأفطس، ذراعا منار دائمتا الحركة، وهذه البنت أرخت ذراعيها، لا تكاد ترفعهما، حتى القدمين أذكر أصابع منار المطلية بالمانيكير،

أصابع هاتين القدمين الحافيتين مقصوصة، وعلاها الوسخ.

أعدت النظر، كأنى أريد التثبت، ثم اتجهت إلى الناحية المقابلة، ربما لأتخلص من الارتباك.

منار!

طرف الخيط التقطته المصادفة، عند الظهر تأتى من مدرستها، تظل فى شقتنا – فى الطابق الثالث – حتى تعود أسرتها، يترامى النداء باسمها، تلقى التحية، وتنزل.

فيما يشبه ترتيب الأوقات تمضى أمى إلى عملها بسنترال المنشية، أتصور طريقها من صفر باشا إلى وكالة الليمون، ثم شارع الميدان، تعبر ميدان المنشية إلى مبنى السنترال فى سعد زغلول، الطريق نفسها فى العودة إلى البيت.

تتشاغل منار بتقليب المجلات التى أقرأها، تشاهد الصور فى آخر ساعة والمصور وأكتوبر والكواكب، تسأل، أجيب بما أعرفه.

عرضت أن نلعب الكوتشينة.

– تعرفين؟

– ألاعب إخوتى البصرة والكومى والشايب.

أدركت عدم إجادتها اللعب لما بسطت الأوراق بحيث أراها.

– بماذا تحكم؟

فى نظرة غير فاهمة:

– ماذا؟

– الفائز يحكم على الخاسر.

انبثقت الفكرة كومضة، حدقت فى عينيها، أتبين إذا كانت ستوافق على قولى.

ما طلبته حدث تماماً: استلقت على الأرض، بين الكنبة المستطيلة والمكتبة، ثبتت نظرتها – كما طلبت – فى السجادة الصغيرة، لا تحولها، عانيت الارتباك، وفقدان الرغبة، أتأملها فى استسلامها واستكانتها، لا أعرف إن كانت تعد نفسها لما قد يغيب عن بالى، مجرد أن أنظر، وأتأمل، وأحدق، أنتزع الطمأنينة من توتر اللحظات غمرنى شعور بالانبساط، وأنا أرنو إلى رقادها المسترخى، المستسلم. نفذت أمرى بالاستلقاء، تنتظر أوامرى بالتخلى عن سكونها. لو أنها سألت، أو أبدت اعتراضاً، ربما غلبنى الارتباك، يؤدى تململها إلى عجزى عن تدبر ما فعلت، وأنها ستجد فى اللحظات – التى لا أعرف أسبابها – ما تحكيه لأهلها فى الطابق الأول.

جذبنى تكوينها الصبى، المتناسق، وملامحها الدقيقة، المتناغمة، البريئة، لكن الرغبة الطارئة جاوزت احتواء جمالها، خلت مشاعرى من كل ما يرنو إلى الاقتراب والملامسة، مجرد أن أحدق فى الجسد

المضطجع أمامى، يتمدد نصفه العلوى على الكنبة، وتصعد الركبتان، يبدو الجسد متداخلاً فى نفسه، هادئاً، ساكناً، ربما حرك فى نفسى عاطفة لم أقو على ردها.

استقرت مخيلتى على أنه لن يكون لى حظ كبير فى إقامة علاقة مع بنت، لا أضع لها هيئة محددة، ولا ملامح أطمئن إليها، تتوه بها التصورات، فلا أستطيع استدعاءها.

تنبهت إلى سؤالها:

- خلاص؟

داخلتنى نشوة لم أشعر بها من قبل.

لم يجاوز ما حدث إحساسى بطفولتها، حتى ملامستى لأجزاء من جسدها، فسرتها بحبى الدافق لطفولة الجسد والملامح، منعنى الخجل - وربما الخوف - من اقتحامها بنظراتى، أسترق النظر إليها، مجرد النظر هو ما أطلبه، أطبقت أصابعى فلا تمتد - بقوة غالبة - إلى جسدها: الشعر الأسود، الناعم، تطوح حول رأسها، الأنف الدقيق، الشفتان المكتنزتان، الغمازتان فى وجنتيها المصطبغتين بالحمرة، القدمان الصغيرتان، الناعمتا البشرة، تتحرك أصابعهما فى توال، كأنهما تنفضان قيداً.

أغلقت الباب وراءها، ثم عدت إلى المكان أتأمله، أستعيد ما حدث،

ما لم أتصوره، ولا دار فى بالى، رفعت رأسى، أغمضت عينى، أسلمت نفسى لخيالات وتهويمات ورؤى صاخبة، ونشوانة، فى فضاءات لا أتبينها، وإن ألحت على تصوراتى بما يصعب مغالبته.

أعرف قسمات التكوين الجسدى للفتاة، أية فتاة، أتوق لملامسته، يصدنى الخوف والقلق، فأعانى العجز.

تنبهت – ذات عصر – على صوت أمها يتناهى من أسفل:

– منار!

انتفضت، جرت ناحية الباب.

لم تعد البنت – من يومها – تكلمنى، تعبرنى – إن التقينا على السلم – بنظراتها، كأنها لا تعرفنى، انقطعت عن زيارتى منذ نادت عليها أمها، لم يكن ما دعوتها إلى فعله يستحق المؤاخذة.

خشيت أن تكون منار قد روت لهم ما حدث، وأنهم أضافوا إليه.

لم تعد حتى المصادفة وسيلة للقائنا، وإن حدث، أسرعت منار فى خطواتها، كأنها تلقت أمراً بابتعادها.

لزمت – من يومها – الشقة، أتوجه إلى السنترال، وأعود، أنظر أمامى، لا أتلفت، أتدبر النتائج لو أن أحداً من أسرتها رآنى.

رويت لسعد ما حدث.

قال فى تحير:

– أعرف أن هناك بنات بقين على العذرية.. لكننى لا أعرف هذا فى الأولاد.

أردف كمن يكلم نفسه:

– العذرية اختراع ذكورى.

وحدجنى بنظرته المتحيرة:

– لا أتصور أنك بلا تجربة جنسية.

داريت ارتباكى أمام الاســـتغراب فى عينى ســـعد، تمنيت لو أنى احتفظت لنفسى بما جرى.

أطلق ضحكة قصيرة:

– ربما استطاعت البنت أن تحافظ على عذريتها.

ثم وهو يمرر أصابعه على رأسه:

– أنت.. كيف تستطيع؟!

وفاجأنى بالقول:

– لم تكلمنى عن بنات؟

غالبت ارتباكى وأنا أعترف بخلو حياتى من التجارب العاطفية، لا تجربة من أى نوع، حتى القبلة أتوق لها فى شــفتى بنت، لكن الرغبة لا تلبث أن تفارقنى دون أثر.

وهو يلكزنى بقبضته فى كتفى:

– لا تقصر استخدام ساقيك على المشى.

ورمقنى بنظرة مرتابة:

– ما وظيفة الساقين فى رأيك؟

حاولت أن أتكلم، لكن شـفتىّ ظلتا سـاكنتين، صـامتتين، كأنهما تجمدتا.

– ألا تعرف الجنس؟!

هززت رأسـى دون معنى محدد، مئات الكلمات ألوكها فى فمى، ولا أنطقها.

أردف بلهجة مستهزئة:

– لن تعرف تجارب حقيقية ما لم يكن لديك شهادة خبرة!

أنصت إلى حكاياته عن البنات، لا أعقب، ولا أسأل، ولا أستوضح ما غمض. أظل صامتاً، وإن شرد بى الخيال فى تصورات غائمة.

ما الذاكرة؟

لماذا يستعيد الذهن صوراً دون أخرى؟

تجاهلت ما جرى، تناسيته، كأنه لم يكن، لكن اللحظة الوامضة أعادته: منار على الكنبة، ثنت ساقيها، قاربت ركبتيها من ذقنها، تدفس وجهها – بإلحاحى – فى باطن الكنبة، هادئة، ساكنة، صامتة، تختار لحظة نهوضها:

– خلاص؟

أقول:

– خلاص!

لماذا تذكرت منار؟ لماذا ومضت صورتها فى ذهنى، وغابت صورة كوثر؟

فرضت علاقتى بمنار موقفاً ساكناً، غابة كوثر السحرية امتلأت بالأشجار المتشابكة الأغصان والأوراق، صخب فيها انفلات الحواس والعناق والتأوهات والأنفاس اللاهثة.

أشرد فى كوثر، تذكرتها فعلاً تالياً لاسترخاء منار الهادئ المستكين، تدس أنفها فى الأرض، بينما النظرة المحدقة هى ما أكتفى به، حتى أدعوها إلى القيام.

رنوت إلى جسد البنت المستلقى على الكنبة، تمهلت نظراتى – بجرأة الثامنة عشرة – عند عنقها وأنفها وشفتيها، تشملنى ارتجافة لملمس بشرتها.

كنت قد أدليت – لأول مرة – بصوتى فى الانتخابات، أخذ الرجل بطاقة الاستفتاء، جرى بالقلم عليها، ودسها فى الصندوق. غادرت مكان اللجنة وفى داخلى قرار ألا أعود ثانية إلى هذا المكان، أو ما يشبهه.

أشارت كوثر إلى ملابسى، فلم أنزعها. ظلت الملابس – عدا الحذاء الذى ألقيت به، وتركت الجورب – على جسدى.

أهملت مداعبتى لأجزاء من جسدها، تناولت يدها بين يدى، ضغطت عليها فى ود، مسدت بشرتها، عركت – برفق – أذنها، تخللت شعرها بأصابعى، تهدل – فى غير انتظام – على كتفيها، وحول رقبتها، لامست خدها، أسلمتنى قدميها، دلكتهما، فسرت ما حدث – بينى وبين نفسى – بغياب الفهم.

هل تدوم اللحظة؟ هل تأذن لى بتكرار ما حدث؟

اللمعة فى عينيها حفزتنى إلى تقبيلها، ثم غابت اللحظة التالية، هل تتواصل قبلاتنا، أو أحاول التسلل إلى مواضع أخرى فى جسدها؟

تمنيت – فى استغراق اللحظة – أن تستمر بلا انتهاء، لا صلة لها بصحو أو نوم أو تأمل أو قلق أو خوف، أستعيد جلستى على كرسى

فى نهاية حديقة المنشـــية، فوقى شـــجرة تفرش الظل، أمامى كشـــك للســجاير، يقصــده المترددون على المحكمة الكلية، ألوذ بنفســى، أخلو إليها، أنعزل عن العالم، أشرد فى الصمت والإنصات والفراغ والأطياف التى لا أتبين تفصيلاتها.

المتعة التى تبقى لحظة، يراها أوسكار وايلد أفضل من الحسرة التى تدوم إلى الأبد. لن ينقضـــى العمر فى لحظة ممتدة، لحظات الســـعادة نختطفها – فى الأغلب – من معاناة الحياة.

لماذا لا أختطف لحظات السعادة؟

غابت نظرة كنت أحبها فى عينى منار، ليست تحريضاً ولا مغازلة، تشدنى إلى طمأنينة أستريح لها، وأحبها.

قمت من جلستى، رفعت عيناً متسائلة:

– هذا هو؟

أعدت القول:

– هذا هو.

– ألا تريد شيئاً آخر؟

– لا.. هذا كل ما أريد.

أهملت الاستغراب فى ملامحها.

داخل صوتها غنج:

– عرفت أنى سأكسب صديقاً جديداً.

لم أكن أنا الذى دعوتها، اندفع سعد، يتقدمها إلى داخل الشقة:

– كوثر.. صديقة.

حدست أنها ابنة الرجل ذى الجلباب الأبيض والشبشب، والسيدة التى أسدلت على رأسها، ومعظم جسدها، عباءة سوداء، لم أعرف أين تقيم الأسرة، ولا إن كان لها أخوة آخرون، أراها – فى وقفتى خلف النافذة – إلى جوار العربة الصندوق، على ناصية ميدان المسافرخانة، تكومت فوقها فاكهة الموسم: البرتقال واليوسفى والبلح فى الشتاء، والتفاح والمشمش والخوخ والبرقوق والبطيخ وأنواع أخرى كثيرة فى الصيف، تقف، وتجلس، بجوار العربة، بمفردها، أو تترك أحد الأبوين، تنتقل بين أبواب البيوت والدكاكين، أفسر ابتسامتها الواسعة المصاحبة لاتجاه نظراتها ناحيتى، أنها للترغيب فى شراء ما تبيعه.

اتجهت إليها بنظرة متأملة.

أول مرة أتأملها.

بدت متغيرة الملامح عن رؤيتى لها من فوق، بشرتها السمراء أميل إلى الصفرة، عيناها السوداوان تحرضان على ما يسهل فهمه. شعرها الناعم يتطاير مع حركة رأسها السريعة.

كانت كوثر هى التى تتكلم، لكننى أنظر إلى منار، أتأمل استرخاءها فى الصمت السادر، أصغى إلى صوتها الجميل: خلاص، أتمنى أن تمتد اللحظات بلا انتهاء.

لم أكن رأيت جسد فتاة عارياً، قبل أن تنزع كوثر ملابسها، وتواجهنى. أخذتنى المفاجأة، ودعوتها، لم أتبين ما حدث إلا بعد أغلقت الباب وراءها.

ضبطت نفسى أستعيدها، أتخيلها عارية، لم يكن جسدها، وإنما جسد منار، غاب القوام الصبى، والعينان الواسعتان، والأنف الدقيق، أحاول استعادة ما كان.

عرفت أنها لم تخطئ فهم نظرتى، ربما أفصحت عيناى بما حاولت أن أداريه، أدركت أنها فطنت إلى ما بنفسى، فتملكنى الارتباك، لم أعد أنا الذى يتكلم، بل الرغبة المشتعلة داخلى، قالت عيناها ما لم تنطقه الشفتان، دعوة ينبغى أن أستجيب لها، أغادر مكانى، أتجه ناحيتها، لن أنتظر حتى تتحرك.

المشاعر كانت تداخلنى باللذة، وأنا ألمس ما تصل إليه أصابعى من جسدها: الشعر، خلف الأذن، الوجنة، تحت الكتف، الساق، بطن القدمين.

فاجأتنى بتصرفها، جذبت البلوزة من أسفل، أطل ثدياها صغيرين،

منتصبين، يغريان بالملامسة.

تحسست أصابعها الطويلة ساقى، فكت أزرار البنطلون، انتفضت واقفاً.

هذا ما لا أريده.

زمت شفتيها داخل فمى، احتوت بهما شفتى، غرقت فيما يشبه الجنون، تحققت الرجفة، فهدأت نفسى.

خلفت فى فمى، وأنا أقوم عنها، ما يشبه زفارة السمك.

استوت واقفة، وسوت فستانها القصير.

أمعنت النظر – بجانب عينى – فى ملاءة السرير، تأملت – بإحساس المفاجأة – نظرتها المبتسمة، الساكنة.

بعد أن قامت إلى الحمام، عاودت تبين الأثر. أربكتنى المفاجأة، وإن حاولت أن ألملم مشاعرى.

أثارنى – بينى وبين نفسى – أنها لم تظهر اهتماما.

تجرأت بالقول:

– متزوجة؟!

هزت رأسها دون أن تغادر البسمة الساكنة شفتيها.

وهى تفتح باب الشقة:

– عن إذنك يا سى مازن.

فى دهشة:

– تعرفين اسمى؟

– سى سعد رسانى على كل شيء.

نقلت نظراتها بين النقود فى يدها، وبينى:

– هل تريدنى ثانية؟

وأنا أفتح الباب:

– سأناديك من النافذة.

شعرت أن شيئاً ما انكسر داخلى، وأنى لا أستطيع إصلاحه. لم يشغلنى فى العلاقة سوى تأمل البنت الممددة، ما حدث مع كوثر خطأ لن أكرره، عمق من موقفى الرافض ما لفنى من شعور التقزز عقب انتهاء اللحظة، الفرجة وحدها ما أتوق إليه، الجسد الهادئ، الساكن، يخضع لنظراتى المحدقة. لا تبدى البنت اعتراضاً، لا تناقشنى، لا توجه أسئلة.

قفز السؤال وأنا أجاوز جامع على تمراز: ماذا لو اتهمتنى كوثر بأنى أول من دخل حياتها؟

تملكنى خوف لمجرد التفكير أنها ستروى ما حدث لمن لا أعرفه، ينقل ما روته – بزيادات – إلى الجيران، تتسع الدائرة بما لا أتوقعه، تحاصرنى النظرات الساخطة، والرافضة، ربما واجهنى الأذى، أو ما

يصعب تصوره.

توقفت بعفوية، تلفت، كأنى أتوقع من يلاحقنى.

نقلت لسعد مخاوفى.

تمازج فى نظرته التأنيب والسخرية:

– لابد من وجود مشكلة حتى نبحث عن الحل.

وزفر فى نفاد حيلة:

– كما أرى لا يوجد فى ما قلته مشـــكلة، ولد وبنت وحدهما داخل شقة.. هل يؤمها للصلاة؟!

أذكر أنى لم أكوّن صـداقات فى مدرسـة راتب باشـا الابتدائية، ولا فى مدرسة محمد على الصناعية. لاحظ الطلبة حساسيتى، حاولوا النيل منى بعبارات ملمزة، وساخرة، اقتصرت صداقتى على سعد، أنا من قسم الكهرباء، وسـعد من قسـم الميكانيكا، أنسـت إليه لأنه يسـكن فى البيت المواجه، ويعاملنى كصديق.

بماذا قدمنى لها؟

لم أكلمـه – ولا أى أحد – عن التصـــورات التى ملأت نفســـى، سـكنتنى، أنصـت إلى حكايات علاقاته، بنات من الحجارى والسـيالة ورأس التين، يسترسل فى الكلام، لا يقطعه، عيناه لا تطرفان، وابتسامته المسـتخفة ثابتة على شـفتيه، وإن بدا خده الأيمن دائم الارتجاف بحركة

عصـــبية، يثق أنه إذا أطال التحديق فى عينى فتاة، فإنها تقابله بنظرة استجابة، يعجز عن التحكم فى مشاعره لرؤية فتاة جميلة، تتلفت نظراته حتى لا ينتبه أحد إلى اســـتحواذها عليه، عندما تتملكه الرغبة، يتعمد خفوت الصوت، ويستعير لهجة رقيقة، أرجع إلى خلافات أبويه صعوبة التزامه بمسـئوليات أسـرته، يكتفى بالعلاقات الطيارى. يفضـل العيش بطريقته الخاصـــة، تســـتغرقه اللحظة التى يعيش فيها، لا شـــأن له بتوقعات، ولا تشـغله نهايات الأشـياء، مادام كل شـيء قائماً، فليس ثمة ما يدعو إلى الخوف أو القلق، لا يعير اهتماماً لما يقوله الآخرون، ولا تشـغله الآراء التى تدينه، لا يحزن، ولا يغضـب، ولا يلجأ إلى رد الفعل، لا يعانى مشـاعر سـلبية من أى نوع، كأنه يتقبل الإسـاءات، والكلمات الموبخة، وإن حملت كلماته تورية هادئة، يجيد الاتجاه بالحديث إلى المعنى الذى يريده، يحرص أن يعلو بصـوته على الآخرين، يسـيطر – بصـــوته الأجش المرتفع – على تلاغط الأصـــوات، إن احتد النقاش، فتش فى ذهنه عن نكتة، أو دعابة، يخفف بها التوتر الذى ران على الجلسـة، يثق فى نفسـه إلى حد الجرأة، وربما التعالى، يضـايقنى تلبسـه روح المعابثة السخيفة، تلذذه بإلقاء الأسئلة القاسية، كشفه – بلا سبب – عما ينبغى ستره.

ساءنى أنه شرد عن كلماتى، وواصل مضغ ما لم أتبينه:

– ما هذا؟

اكتفى بالقول:

– أجرب.

اجتذبتنى شـخصـيته، وإن لم أجد فى تصـرفاته الغريبة ما يدفعنى إلى المحاكاة، تكررت تصـــرفاته، أعجز عن تقبلها، أو فهمها، أكتفى بالصـمت لانتقاده إخفاقى فى التعامل مع الآخرين، وعجزى عن كسـب ودهم.

غمرتنى راحة لأنى نصحته أن يرجع عما اعتزمه لبنت من السيالة، هجرته بعد أن تحابا ما يقرب من السنة، اشترى زجاجة ماء نار ليقذفها بها فى ظلمة حارة الشـــارونى، اعتاد تذكيرى: نصـــيحتك أنقذتنى من السجن!

يعاودنى الإحساس بالراحة.

كنا نترافق وقت ما قبل الغروب إلى طريق الكورنيش، يملأنا حب الفرجة لكل ما حولنا: الجالســـين على المقاعد والســـواتر الحجرية، صـيادى السـنارة والطراحة والجرافة، باعة الفريسـكا والفسـتق والفشـار والفول الســـودانى والترمس وكيزان الذرة، هســـيس النخيل فى امتداد الطريق، الطائرات الورقية الملونة.

يكرر أمنية لا تفارق خياله: يركب البحر إلى الموانى البعيدة، يتزوج من امرأة فى كل ميناء ينزل إليه، لا يطلقها، لكنه يترك المدينة فى موعد رحيل الباخرة، ينسى – أو يتناسى – ما حدث، وإن تزوج فى أول مدينة ترسو فيها الرحلة التالية.

آخر فسحتنا تمثال سعد زغلول، نصعد إلى القاعدة الجرانيتية، نتأمل ما حولنا: البحر، ميدان محطة الرمل، زحام محطة الأوتوبيس، بوابة فندق سيسل الباعثة للتأمل، الرؤية الرمادية داخل التريانون، البناية المنفردة للغرفة التجارية، إن هطلت الأمطار، اتقيناها بالوقوف تحت مظلات المقاهى والكازينوهات فى الناحية المقابلة للبحر، إن سخن الجو، اخترنا الوسيلة نفسها.

عرفت أنه لا يحب القراءة، ألاحظ سحبه الكتب الموضوعة على المكتب الخشبى الصغير، جوار السرير، يكتفى بنظرة غير متفحصة، ثم يعيد الكتاب.

ثانى يوم، فتحت الباب لصوت الجرس.

طالعتنى كوثر.

وضعت فى عينى نظرة محدقة، كأنى أسألها عن سر عودتها، تجاهلت النظرة، ومضت إلى الداخل.

اطمأننت – بنظرة خاطفة – إلى إغلاق الشقة الملاصقة.

لم تفارقنى كوثر منذ أغلقت الباب وراءها، حل الخوف فى داخلى، لو أنها تنسب لى ما لا أعرفه، ما يورطنى.

فارقتنى الرغبة، أزمعت ألا يتكرر ما جرى بينى وبينها.

لكنها جاءت، ودعوتها إلى الدخول.

يلازمنى الإحساس بالفراغ، كأن شيئاً ينقصنى، لم يشغلنى فى العلاقة سوى تأمل البنت المستلقية، أو التحديق فيها، أعانق كوثر، لكن منار تحل بدلاً منها، أستعيد اللحظات الوامضة، يتداخل الفعل والملامح والكلمات، حتى تحتل الذاكرة تماماً.

ألوذ بسريرى عقب كل علاقة، ألملم أجزاء جسدى المبعثرة. وإن قاومت رغبة طاغية فى أن أعاود ما كنت أفعله، ألامس ما تصل إليه يدى من جسدها، كأنى أريد تذوقه.

البيت فى شـارع جودة برأس التين، والهيئة فى ميدان المنشـية، أفر من زحمة الأوتوبيسات والعرق والملاحظات والشتائم، أخترق صفر باشا إلى نهايته، ومنه إلى شارع الميدان فى تقاطعه مع وكالة الليمون، أقطع المسافة المتبقية سيراً، حتى يطالعنى ميدان التحرير.

ألاحظ فى نفسى ميلاً لعد كل ما أصادفه، ما لا أعرف طبيعته فى داخلى يدفعنى إلى العد: قطع البازلت فى شـارع المسـافرخانة، بلاطات رصـيف الكورنيش، طوابق البنايات، النوافذ المفتوحة، والمغلقة، درجات سلم البيت والسنترال، اللمبات المضيئة فى النداء الآلى، القوارب الراسية على يسار المينا الشرقية، أشجار النخيل المطلة على البحر.

أجاوز شـوارع وميادين ودكاكين ومقاه، ألفت رؤيتها، ربما ألف من أعبرهم فيها رؤيتى، تدفعنى الألفة – أحيانا – إلى إيماءة بالتحية.

قالت أمى إن أبى اختار لى اسم سبارتاكوس عن بطل الفيلم الذى يتذكره منذ شاهده فى السينما، حذرته أمى من غموض الاسم، وصعوبة نطقه. اختارت أمى اسـم أنور السـادات، هو أنسـب الأسـماء فى أيام حرب أكتوبر، وجد أبى أن تسمية أنور تنطبق على الممثل أنور وجدى، وتسمية السادات قديمة. اقترحت اسم حسنى، لأنه خليفة السادات، لكن أبى اختار اسم بائع سورى من الباقين – عقب الانفصـال – فى سوق سوريا.

تضـــايقت – بينى وبين نفســـى – حين قالت أمى لجارة الطابق الثانى إنى ظللت عاجزاً عن الاستحمام بنفسى حتى جاوزت العاشرة.

لم تقتصـر قراءاتى على الكتب الدراسـية، قرأت فى كتب اسـتعرتها من مكتبـة فـارس بشـــارع رأس التين، أو فى المكتبـات القريبـة من السنترال، خمسة قروش لقراءة الكتاب، بصرف النظر عن قلة صفحاتها أو زيادتها. القراءة التى تضـيف إلى ما أعرفه، أقرأ فى كل شـيء، وإن ملت إلى قراءة الروايات والمجموعات القصـــصـــية ودواوين الشـــعر، حاولت – بالقراءة – أن أعوض ما فاتنى من التعليم الجامعى، يداخلنى اعتزاز لأنى أعرف مـا يغيـب عن زملائى فى الســـنترال، أكتفى بـأن أعرف دون أن أحاول المشاركة فيما يدور أمامى من مناقشات، تؤنسنى وحدتى، لا أجد فى نفسى ميلاً لتكوين صداقات، أو علاقات. سعد كأنه حالة اســتثنائية فى حياتى، تؤنســنى وحدتى، لا أجد فى نفســى ميلاً لتكوين صـــداقات، أو علاقات، ســـعد – فى حياتى – كأنـه حالـة استثنائية.

عانيت الملل، عبرت ميدان المنشـــية إلى العطارين، أشـــترى من مكتباتها ما أعود إليه حتى أنهى قراءته.

أرفض العنف، أكتم انفعالاتى، أحاذر، لا أقع فى أى خطأ يضـعنى فى موقف التوبيخ، أو المسـاءلة، لا يدفعنى الغضـب إلى مواقف تؤذينى

تأثيراتها، أخشى المجازفة، أرفضها، كانت نصيحة أبى أن أمشى جنب الحيط، أبتعد عن كل ما يأتى بالمتاعب، أو يؤذينى، تخالفه أمى فى إلحاحها على أن آخذ حقى بيدى، ربما نصـــيحة أبى هى التى أتاحت للشعور الطاغى أن يستقر فى داخلى.

تملكنى الخذلان، فلم أدافع عن نفســى، أســتنكر ما حاولت التغلب عليه مرات كثيرة، لكنه يظل فى داخلى، يقيّد كلماتى، وما أريد قوله.

أتخيل أصـــدقاء أحاورهم، آخذ منهم، وأعطى لهم، نتفق ونختلف، يتكلم فأقاطعه، أســتدعى الكثير من الصــور والذكريات والرؤى المقنعة، أعبر – بوضــوح – عن المعنى الذى أريده، هذا هو ما ســأقوله تماماً، إن حدث – كما قدّرت – موقف مماثل. الأفكار تواتينى – بســـهولة – عندما أكون بمفردى، أســتدعى الكلمات، أرتبها، أحذف، أضــيف، حتى أصـــل إلى المعنى الذى أريده، الكثير من الملاحظات والدعابات والنكات والقفشـــات والردود على أســئلة أتوقعها، يغيب ما أعددته أمام النظرات المستحثة، والأسئلة، والكلمات المقاطعة، أذوب تماماً، أتلاشى، فى حضور زملاء السنترال، اختار الصمت ملاذاً مما أعانيه.

عندما صــحوت، عرفت أنى عشــت حلماً، ولعله كابوس، تلاشــى باســـتيقاظى تماماً. عاودنى الحلم وأنا على قهوة رأس التين، لم أعرف إن كان من رأيتهم هم الناس الذين رأيتهم فى الحلم، أو يشــبهونهم، لكن

التخويف الذى حوصـرت به لم يتبدل، وإن نفضـت رأسـى، فلا أصـرخ كما فعلت فى الحلم.

قال لى المهندس طنطاوى:

– أنت تفعل ما أريده، لا ما تريده أنت.

يبدو الانزعاج فى عينيه لأى خطأ أثناء العمل، كأن الخطأ يصعب إصـــلاحه، يحشـــر قراءاته فى كلامه، ربما دون أن يحتملها الســـياق، يضـيف إليها مفردات، و مصـطلحات الإنجليزية، لا يلبث أن يترجمها. توقعت أن الحقيبة التى يضـــعها على الطاولة، بها مســـجل، المســـجل يلتقط حتى الكلمات الهامســـة، يحللون المعانى الظاهرة، والخفية، ونبرة الصـــوت، يجدون فى ذلك كله دليل إدانتى، لا حاجة بهم إلى انتزاع اعترافات بما يرهقنى، وقد يرهقهم.

أشعر أنه قد نبتت لى مخالب، أنشبها فى عنقه.

كيف يحتمل كل هذا الغل فى نفسه ؟

تعددت مذكرات لفت النظر، والاتهام بالتقصـــير، والخصـــم من المرتب، والحرمان من الحوافز، ورفض البدلات والإجازات.

لم أبدل ابتسامتى فى وجهه، لا يعرف أنى ابتسم تجنباً لأذاه.

إن وجدتنى فى جماعـة، يتملكنى الإحســـاس بـالغربـة، تؤلمنى النظرات التى تحيط بى من كل جانب، نظرات متســـائلة، ومســـتريبة،

ومتشـــككة، أعـانى الريبـة والتوقع والخوف من المجهول، كـل حركـة تدعونى إلى التلفت، الأشـــياء بلا معنى، والنظرات من حولى ســـاكنة بالغموض، أتلفت حولى، كأنى محاط بأعداء أجادوا التخفى، أشـعر أنى أواجه تهماً لم أرتكبها، حتى وســـوســـات النخيل فى طريق الكورنيش، أتصـورها – أحياناً – فى غير صـوتها، ضـبطت نفسـى أدقق النظر فى ما ألقى ظله خلف شجرة، عدت إلى نفسى برؤية الجوالات المكومة.

لا أعرف إلى متى سأتحمل هذه التصرفات؟

لماذا لا يبتعدون عن طريقى ؟

رأيت كوثر على رصـــيف الكورنيش، نظراتها المتوترة كأنها تبحث عن شـــيء، فســـتانها الذى يقصـــر إلى ما فوق الركبتين، يختلف عن فســـتان البيت الذى لم تكن تبدله، حدســـت أنها تترقب ســـيارة، تبطئ سـيرها، تتوقف، ينفتح لها الباب، فتدخل. أسـرعت فى خطواتى، اتجهت – حتى لا ترانى – إلى الناحية المقابلة.

قال ســـعد إن والد كوثر تزوج علي أمها بائعة خضـــار فى شـــارع صـفر باشـا، شـحمية البدن، لها شـعر طويل ينسـدل إلى ظهرها، لحظة الجنس عنده ترتبط بالشـعر الناعم الطويل، يمسّـده بيديه وهو يحتضـن المرأة.

كان صـــوتها يجتذبنى – عبر التليفون – ببراءته النقية، قدرت عمرها بين الخامسة والعشرين والثلاثين، تقرأ أرقام النداء الآلى المعطلة كى أراجعها، أتبين إن كان العطل طارئاً، أم يحتاج إلى إبلاغ مهندس الوردية؟

عرفت صـــوتها. لم أبادر – كعادتى – بأى شـــيء، أوازى الخطوة التى تقطعها، لا أحاول التقدم، يواجهنى ما لم أعد لـه نفســـى، ولا أتصوره، لم أواجه ما يحرجنى فى علاقاتى بزميلات العمل.

فاجأتنى البسمة الصافية – ذات عصر – وأنا أطمئن إلى سلامة السويتشات التى أضاءت لمباتها الصغيرة:

– مازن.

عرفت أنها هى، هززت رأسى، وإن عجزت عن نطق اسمها.

دفعت بالورقة الصغيرة:

– هذا عطل يخص رئيس تليفونات الإسكندرية.

أردفت وهى تتابع بحثى عن الرقم المعطل:

– صوتك يعطى سناً أكبر.

لم يكن أحدنا يلقى التحية على الآخر، ولا يســتوقفه بالســؤال، أو الكلام، يمضــى كل منا فى طريقه، لا يتلفت، عندما بدأت نظرة كل منا تتجه إلى الآخر، أدركت أنها تشغلنى.

المصادفة – وحدها – هى التى رتبت لقاءنا خارج مبنى السنترال. بدت مرتبكة وهى تحمل أكياس طعام، اشترتها من سوق راتب، أخذت الأكياس دون أن يخطر فى بالى أين تذهب بها.

قالت فى لهجة معتذرة:

– مشوارى بعيد.

لم أرد، ولا أومأت إلى أنى استمعت لما قالته. واصلت السير جوارها، أنظر إلى ما حولى بعين شاردة، لا أدقق فى التفاصيل، ولا أحاول إيداعها الذاكرة.

تنبهت إلى أنى أحاول سد فراغات الصمت بأسئلة شاغلها الكلام وحده.

– أنادى تاكسى؟

حدجتنى بنظرة من طرف عينها:

– محطة الترام قريبة.. البيت فى كرموز.

وجدت صعوبة فى الوقوف إلى جوارها على المحطة، تدافع الزحام ابتلع كلماتنا، ومحاولاتنا للاقتراب.

فى انحناءة ميدان المنشية، راجعت نفسى: هل كنت موفقاً؟ هل أحسنت التصرف لما رافقتها إلى محطة الترام؟ هل عانيت التلعثم والارتباك والرغبة فى إظهار التفوق، ومشاعر أخرى يمليها الانفعال؟

لاحظت أنى لا أمتلك تعبيرات عاطفية، أقولها فى مواقف البوح، تمنيت وأنا أجتر – فى مقعدى بالأوتوبيس – ما حدث، لو أنى غنيت، صفرت، قفزت إلى أعلى.

رافقنى طيف فردوس فى عودتى إلى البيت، شغلنى عن الطريق – عبر طريق الكورنيش – إلى شارع جودة، كلمتها، واستمعت إليها، ظلت عيناها معى، أطالعهما فى كل مكان، تبدو فى حروف الجريدة، تملأ صورتها الصفحة. أتخيل سيرنا على طريق الكورنيش، تجاورنا فى مقاعد البلكون بسينما فريال، تناولنا ساندوتشات فول وفلافل من محمد أحمد، أسند رأسها على صدرى، وأسند ظهرى على شجرة فى حديقة الشلالات، جلوسها إلى جوارى – بدلاً من سعد – على القاعدة الجرانيتية لتمثال سعد زغلول.

***

تعددت لقاءاتنا.

أدركت المعنى من تلميحاتها، لو أنى أغازلها، أهمس بكلمات ترضيها. ظللت متردداً، حتى ابتعدت. لم يكن ثمة ما أستطيع أن أقوله، فصمت.

لاحت فى عينيها نظرة قلق:

– أنت دائم التلفت؟

وأنا أعانى الارتباك:

– أخشى أن يرانا أحد.

أطلقت ضحكة هادئة:

– تغير الزمن، لم يعد الناس ينظرون إلى خروج البنت مع شـــاب نفس النظرة القديمة.

غالبت ارتباكاً فى مجاراة ميلها إلى التحرر. لم أنطق كلمات كنت أعددتها فى فمى، وحزنت لأنى تكلمت حين كان يلزم الصمت.

لامس كفى ظهر يدها، فارتجفت.

شدت – بتلقائية – طرف فستانها، وأسدلته على ساقيها.

أدمنـت النظر إلى كعـب قـدميهـا فى الحـذاء المغطى، خمنـت الاستدارة الوردية، شرد خيالى بتحسس فخذها، حتى تستقر راحتى على ركبتها، تسبل عينيها، وتستسلم فى استكانة. تتسلل نظراتى إلى ما تحت الجونلة، الهاجس، الحلم، الذى كان يســيطر على تفكيرى. تجتاحنى رغبة كالجنون فى لمس بشرتها، وشم عطر جسدها.

خلعت حذاءها، وسارت – حافية – فى زبد الأمواج.

فكرت فى أن أخلع حذائى، وأرفع ثنية البنطلون، وأسـير – مثلها – على الرمال المبتلة، لكن الارتباك قذف بى فى سـماوات محملة بالترقب والجنون.

شـــعرت أننا أقرب ما يكون كل منا إلى صـــاحبه، لكن الجدار ظل قائماً، أحتفظ – فى نفسـى – بكلام كثير، أرجئ ما أنوى قوله إلى موعد لاحق، ثم أرجئه إلى موعد آخر، ظل البوح – بتوالى الأيام – أشـــبه بالحلم الذى احتواه النوم، التحفظ فى تصـرفاتها صـنع جداراً غير مرئى بينها وبينى، حرصـــت فى كلماتى، فلا أضـــايقها، ألوك الكلمات، ثم ابتلعها، يبدو الصمت شرنقة ألوذ بها.

مددت يدى، أتظاهر بأنى أريد أن أزيح ما علق بقدمها الحافية من فوق الرمال، تغافلت ما داخلنى من نشوة لملمس قدمها الناعمة، الدافئة.

نفضـت رأســى من خاطر وامض، أن أنحنى على موضــع قدميها على الرمال، فأقبله.

أتوق للعلاقة بين الولد والبنت، لكننى أخشـــى التجاهل أو الرفض، إيمـاءة الضـــيق تعيد خطواتى إلى الوراء، يـأخـذنى التردد، فلا أجد الشجاعة التى أعبر بها عن مشاعرى.

ما الذى يخجلنى من هذا الشـــعور؟ إلى متى أعانى هذه الرغبة؟ لماذا أخجل من البوح؟

لا أذكر متى بدأت تعانى الملل من علاقتنا.

كنت أسير إلى جوارها، لا أجد ما أقوله، وإن داخلتنى لذة لالتصاق بلوزتها بقميصى، تمنيت أن تظل إلى جوارى، لا تفارقنى.

تملكنى ارتباك حين أشارت إلى تاكسى:

– أستأذنك لأستعمل هذا الاختراع!

أحسست أنى لم أعد أمتلك إرادة، أية إرادة، لفنى سكون، وصمت، وعجز عن التصرف.

لماذا غلبنى التردد؟ وهل اتخذت – فى تلك اللحظة – قرارها بأن تبتعد؟ هل أصدرت حكمها، وانتهى الأمر؟

لم أتصور أن مشاعرها تجاهى ستفتر بهذه السرعة، وأنها – إن التقتنى – ستعبرنى بنظراتها. استعدت جلستنا تحت شجرة فى نهاية حدائق الشلالات، مالت بوجهها ناحيتى، نفضت فكرة تقبيلها، خشية أن أكون قد أسأت الفهم، تمنيت أن تتكرر مرافقتى لها إلى البيت فى كرموز، أحمل عنها ما تشتريه، ، لو أنى وضعت يدى على كتفها، وسرنا متباطئين، نتكلم فيما يخطر لنا، مجرد أن نسير معاً، نتبادل الملاحظات عن مشاهداتنا لما فى الشرفات والنوافذ والدكاكين والقهاوى وعربات الترام والمارة.

داخلنى شعور أقرب إلى الموت، حين استدارت، وواجهتنى:

– إذا أحببت شخصاً.. فبالتأكيد لن يكون أنت!

اتسعت المسافة بينى وبينها. حاولت أن أستمع إليها، أراها، أتصل بها على أى نحو، تكرر إغلاق ســـماعة التليفون، أو تناهى صـــوت آخر.

أراجع نفسى، أستعيد تفصيلات دقيقة، ربما لم أحسن التصرف، أو قلت ما يضايقها.

إذا لم أكن فاتحتها فى الزواج، فإن كلماتى وتصـــرفاتى عبرت عن المعنى، الزواج هو نهاية صداقتنا، وهو ما أريده.

هل أبطأت فى تقديم العرض؟

هل تعجلت فردوس حدوثه؟

تبادلنا النظرات، وأنا أتجه نحو ســـاعة الميقات، وهى تبتعد، وتمضى ناحية المصعد، أدركت أنها تتجنب لقائى، خشيت أن علاقتنا انتهت.

ظللت واقفاً، حتى غادرت المصعد.

لاحظت نظراتى فى اتجاهها، أشاحت بوجهها بعيداً.

لامست ساعدها، أحاول أن أقول شيئاً.

نترت يدى فى سخط:

- لا تعترض طريقى.

آلمتنى نظرة عينيها، لا تبين عن معنى محدد، وإن وشت بسخرية،

أو احتقار، هذا هو المعنى الذى تصورته.

علا صـــوتها إلى حد اجتذاب انتباه الموظفين، كل من امتلأت بهم الصـــالة الواســـعة، التفتوا ناحيتنا بأعين يمتزج فيها التســـاؤل والقلق والفضول.

أخفضت رأسى، وقلت فيما يشبه الهمس:

- هل أخطأت؟

رمقتنى بنظرة حادة:

- أنت تلبى ما لم أطلبه!

أمسكت بساعدها، أحاول أن أستبقيها، لا أفقدها، لكنها تملصت من قبضتى، وواصلت السير.

صارت فتاة أخرى غير التى أعرفها.

شعرت أن الأرض تميد بى، وأنى أوشك أن أسقط مغشياً علي، غابت المرئيات والأصوات، لم أعد أرى أو أسمع شيئاً، تساندت - بعفوية - على الجدار، حاولت التماسك كى لا أقع.

تمنيت أن أموت.

تكررت رؤيتى لها - فى الأيام التالية - أمام الساعة الميقاتية، أو أمام المصعد. حرصت على الوقوف بعيداً حتى تزايل مكانها.

ناوشنى سؤال، والقطار يبطئ من سرعته قبل محطة القاهرة: هل سأظل وحيداً بقية عمرى؟

حركة الركاب ابتلعت السؤال فى تهيؤهم للنزول. جاريتهم فى سحب الحقيبتين من أعلى العربة، واتجهت ناحية الباب.

الشقة من صالة ضيقة، تتصل بحجرتين متجاورتين، المطبخ والحمام إلى يسار المدخل، فى زاوية المطبخ باب يفضى إلى المنور، يطل على بناية متهدمة.

صحبنى قناوى البواب إلى عين شمس، عدنا بأثاث وأدوات منزلية، تلبى احتياجاتى.

رحلت عن الإسكندرية، لكننى لم أفارقها.

لا أتصور الإسكندرية بدون البحر، يحيط بها، تمضى شوارعها إليه، تعيش على المهن المتصلة به، تمارس حياتها فى تميز أجوائه، للبحر فى الليل رائحة تختلف عن رائحة النهار، هو اختلاف يصعب تمييزه، لكنه هناك، أنصت إلى صوت الليل، صمت سادر، يعمقه ارتطام الموج فى صخور الشاطئ، ترامى أغنية من موضع قريب. نداء، نحنحة، هدير محرك سيارة، صياح طائر ليلى، أهازيج ما قبل صلاة الفجر. أعيش النظر إلى أفق البحر، ومرسى القوارب، والبلانسات، والساحل الممتد، والشمس، وتلاحق الأمواج، وصيحات

النوارس، والصـــخور المعشـــوشـــبة، وورش القزق، وغازلى الشـــباك، وصيادى السنارة والطراحة، وشروات السمك، وحلقات الذكر، والجلوات، والموالد، وترامى الأذان من أبو العباس، وأهازيج الســـحر، والطائرات الورقية، وصـــرير عجلات الترام فى انحناءة الميدان، حتى الشـــتاء فى الإسكندرية له رائحة أخرى، ملامح مختلفة، الأمطار القليلة على القاهرة تنقلنى إلى الإســـكندرية: أمطارها المصـــاحبة للنوات: يا مطرة رخى رخى.. على قرعة بنت اختى، أحتمى بالطوابق الأولى فى شارع فرنسا وميدان المنشية والشوارع الجانبية.

أسير – من حول البيت – فيما يشبه الدوائر، أتبين أنى عدت إلى شارع سرت فيه من قبل، أعرفه من واجهة دكان، بواب بادلنى السلام، كشك سجاير على ناصية الطريق، أتلفت حتى لا أتوه، ثم أمضى فى الاتجاه الذى أتصوره صحيحاً.

حدســـت أنى خلفت ورائى كل ما ينغص حياتى، لكن الإســـكندرية ظلت داخلى. عدت إليها فى زيارات دافعها الحنين، أعرف المدينة من رائحتها، ليس الملح ولا اليود، أو الطحالب، ولا أية رائحة قد تســـم المدينة، لكنها ذلك كله، وتختلف عن ذلك كله، مزيج من الروائح يصنع رائحة خاصـــة، أميزها عند اقترابى من المدينة، لا ألتفت إلى ما أطمئن به لاقترابى من بحرى.

أجد فى العلاقة بين الزيتون ومصـر الجديدة ما يسـتعيد الحياة فى أحياء الإسـكندرية الشـعبية وأحياء الرمل، اكتفيت بتصـور الحياة فى الزيتون، لا يختلفون عن نـاس شـارع جودة، وشـوارع بحرى. أقطع خطوات إلى اليمين، ثم أميل إلى الشـارع العريض المؤدى إلى مصـر الجديدة، جسر بين عالمين.

تركت أثاث شـقة الإسـكندرية، فى بالى أنى سـأعود إليها، فلا أتركها.

لن تظل التصرفات السخيفة والاتهامات والمطاردات فى حياتى إلى ما لا نهاية، حرصـت أن أدفع إيجار الشـقة قبل موعده، ربما دفعت إيجار أربعة أشهر، أو خمسة، دفعة واحدة.

مات أبى بعد حصـولى على شـهادة محمد على الصـناعية، رحلت أمى فى السنة الأولى لعملى – بسعى منها – فى النداء الآلى، صرت بمفردى داخل الشقة، يتناهى صدى صوت أمى، أو أبى، أتلفت ناحية الصدى.

لم أعد أتردد على بيوت أقاربى فى الإسـكندريـة، عدا زيـارتين متباعدتين لعمتى تهانى فى العطارين، وخالى عبد المجيد فى السـكة الجديدة، أملاهما تزايد إحسـاسـى بالوحدة، هما القريبان الوحيدان اللذان أخالطهما من عائلة أبى أو أمى.

قبل أن أتهيأ للســـفر، حملت حقيبة ممتلئة بالكتب إلى العطارين. تقاضيت خمسين جنيها – مقابلاً لها – من مكتبة إخوان الصفا وخلان الوفا، كنت قد قرأت الكتب، فلم يســتوقفنى المبلغ، وإن احتجت إليه فى أول أيامى بالقاهرة.

العمل هو نفسه، ما أفعله فى سنترال النداء الآلى، هو ما أفعله فى سنترال جسر السويس، تلقى الشكاوى، الاطمئنان إلى تواصل " الباور"، ومراقبة الخطوط، والأعطال، وتغيير الأسلاك المقطوعة، والمهترئة.

حين طـالبنى المهنـدس عـاطف غيـث أن أعـالج عطلاً خـارج الســنترال، هممت أن أكلمه عن طبيعة عملى، لكننى وافقت. فى بالى، ألا تظهر عداوات تضايقنى، لا تتكرر مشكلات الإسكندرية، أعرف أن ما ســأفعله كان ينبغى – من ســنوات – أن يؤديه غيرى، لكننى قدمت للعمل، وليس لإثارة المعارك، أفتح صفحة جديدة، أبدأ من أول السطر.

اكتشفت فى السنترال عالماً مختلفاً عن السنوات التى أمضيتها فى ســـنترال المنشـــية، عالماً أهدأ، يغيب فيه التردد والاحتراز، لا ألتفت ورائى، أصـــل قبل الموعد، أنتظر قدوم المهندس عاطف غيث، أعطى انتباهى حين يلقى الملاحظة، أو الســـؤال، يومئ إلى زملاء الوردية، يدعوهم للكلام بما يرون.

جذبتنى آراء المهندس عاطف إلى المكان، غاب ما كنت أتوقعه من إحساس الغربة، حتى ميلى إلى كتم مشاعرى، تخليت عنه فى طرح الأسئلة التى تطلب فهماً، أو إيضاحاً.

أستمع إلى المناقشات، الآراء المؤيدة، والرافضة، والكلمات ذات المعنى، أو التى يغيب معناها، أنتبه إلى الكلمات مهما اتسمت بالعفوية، أى تصرف، مهما يكن صغيراً، ربما تظاهرت بالإصغاء، أرسم التعبيرات التى تعنى المتابعة والفهم، أريد أن أقول رأيى، أهم بالقول، تتقافز الكلمات فى فمى، لكننى أخشى الآراء الغاضبة، أو التسخيف، فأسكت، يملؤنى ما يشبه الشعور بالنقص، أو أنى لا أجيد التعبير عن رأيى، الخيوط التى تصلنى بالآخرين متقصفة، تعانى التطاير.

ربما تهيأت لإبداء رأى، لكننى أكتم ما أنوى قوله، أخشى عدم التنبه، أو التسخيف.

يفاجئنى السؤال: لماذا لا تشارك فى الكلام؟

ألوذ بقاع الحيرة والارتباك.

أرتب الكلمات التى سأقولها، والأسئلة التى ستواجه أسئلتى، والآراء المؤيدة والمعارضة، وما ينبغى أن أقوله فى ذلك كله.

الصمت هو الاختيار الأنسب فى اختلاف الآراء، ما أطمئن إليه

قد يجد رفضاً من شخص أريد صداقته، يربكنى أن يوجه لى سؤال يصعب الرد عليه. ربما شاركت برأى، لكننى بعيد عن الأحزاب والتنظيمات السياسية، لا أعرف كيف تدار، ولا شأن لى بخلافاتها.

كانوا أربعة: المهندس عاطف غيث بقامته الضئيلة، وميله إلى الحركة، وكلماته السريعة، واللدغة التى تحيل الراء غيناً. يرى أن الانضباط يجعل كل شيء كما ينبغى. الحاج السيد البدوى صالح اطمأن إلى التسمية منذ أدى فريضة الحج، ناديته: يا أستاذ، رسم على شفتيه ابتسامة: قل لى يا حاج.. أبرك!

يبدو أصغر بكثير من سنواته الخمسين، لأنه كان يكثر من الأسئلة، فقد أزمعت تجنبه. فيكتور المطيعى فى حوالى الخامسة والأربعين، لكننى علمت بقرب إحالته إلى المعاش، زادت إجازاته، ومال إلى الصمت، وشارك فى العمل بما يشبه التصوير البطيء. لم أعرف المسمى الوظيفى لثروت الزيات، فى أوائل العقد الرابع، يدله المهندس عاطف، أو الحاج السيد البدوى على ما ينبغى فكه، أو قطعه، ويراقبان أداءه حتى ينتهى.

نجلس – فى أوقات الفراغ – إلى جانب النافذة المطلة على جسر السويس، تختفى الفوارق تماماً، تختلط الأسئلة والأجوبة والملاحظات، تعكس كلمات المهندس غيث وجهات نظر تستلفت اهتمامنا. تتكرر

فيها مفردات: الديكتاتورية، الفساد، حبيب العادلى، فتحى سرور، صفوت الشريف، زكريا عزمى، كمال الشاذلى، جمال مبارك، أحمد عز، جرائم التعذيب، غسيل الأموال، التزوير، البطالة، العشوائيات، ارتفاع الأسعار، تدهور التعليم والرعاية الصحية، بيع أراضى الدولة ، خصخصة المؤسسات الكبرى، توريد الغاز الطبيعى لإسرائيل.

– نحن نملك من الموارد ما لا تملكه دولة أخرى.

وعد بأصابعه:

– القوة البشرية.. قناة السويس.. صادرات الزراعة والصناعة.. البترول والغاز الطبيعى.. تحويلات المصريين فى الخارج.. السياحة..

رسم فيكتور المطيعى على شفتيه ابتسامة واسعة ليشجعه على مواصلة الكلام.

– التضخم يعانى تأثيراته الفقراء، أما رجال الأعمال والتجار فيعوضون التأثيرات برفع أسعار السلع والخدمات.

أردف لنظراتنا المتسائلة:

– نحن نشهد مشهداً ثابتاً من سنوات طويلة.. الرئيس وأسرته والحزب الحاكم.

ولوى شفته السفلى فى امتعاض:

– مضـــى على حكم مبارك ثلاثون ســنة.. إن كانت هذه المدة فى زواج، سيصاب أحد الزوجين أو الاثنين بالملل!

وشت نبرة المطيعى بالضيق:

– الشـــعوب تثور على حكامها لأســباب أضـــعف من التى تدعو شعبنا إلى الثورة.

قال ثروت الزيات:

– هذا نظام فقد شرعيته من أول مرة زور فيها الانتخابات.

ثم فى نبرة متصعبة:

– نحن – فى الحقيقة – لا نستحق هذا البلد!

قال الحاج فوزى النمر:

– لو أن أحداث سنة ١٩٥١ استمرت، ربما لم تكن تحتاج إلى ثورة يوليو.

أردف فى لهجة تأكيد:

– كان الشعب هو الذى سيعلن البيان رقم واحد.

قال المهندس عاطف غيث:

– لا أحد من كل هؤلاء الساسـة يخاف على مصـر.. خوفهم على استثماراتهم.

وهز قبضة يده:

– مصر الآن أرملة يتزاحم الجميع على خطب ودها.

بحلقت:

– لماذا أرملة؟

– رحل من كانت تتزوجه.

رفع ثروت الزيات حاجبيه بالدهشة:

– أحببت عبد الناصر إلى هذا الحد؟!

قال عاطف غيث:

– كان هذا هو الحال.. وهذا ما نحن فيه.

قال المطيعى:

– صحيح، قيمة أى بلد فى نخبته المثقفة، هى التى تصنع تقدمه.

أردف بلهجة تأكيد:

– للأسف، نخبنا المثقفة دينها الفساد!

قال فوزى النمر:

– ربما لأننا نرفع الشعارات ولا ننفذها.. نفعل عكس ما تدعو إليه.

قال السيد البدوى:

– سعد زغلول قال: ما فيش فايدة.

قال المهندس عاطف:

– سعد تكلم عن شدة المرض وليس عن البلد.

وجال بنظراته حوله، كأنه يطلب تأييدنا لكلامه:

– لو أن الأوضاع استمرت على ما هى عليه، فلن يكون تسونامى البشر مفاجأة!

قال فوزى النمر:

– إذا واصلنا التنفس فإن التغيير ممكن.

فى نبرة متعالمة، قال السيد البدوى ونحن نتهيأ للانصراف:

– أنت تفضل التقية.. تتظاهر بالموافقة، وتضمر الرفض.

رمقته بنظرة رافضة:

– هذا شأن الشيعة.

وهو يطيل التحديق فى وجهى:

– بماذا تفسر صمتك؟

– إذا تكلمت فلن أخفى رأيى.

أطلق تنهيدة مستخفة:

– لذلك تفضل الصمت.

أدركت أنى لا أستطيع أن أقول ما أعتزم قوله، هززت رأسى، وظللت صامتاً.

أفضل الصمت، بدلاً من الخطأ فى المعلومة، أو الرأى، تستغرقهم المناقشات فى أمور أعرفها، لكننى لا أجيد الكلام فيها، أو أنى أخشى

التورط فيما لا شأن لى به. أضيق بنفسى لميلى – دائماً – إلى المهادنة والمسـايرة وعدم المواجهة، لا أبدى اعتراضـاً، لا أسـأل ولا أناقش، أوثر الابتعاد، ولو إلى داخل نفسى.

حتى ثالث يوم لسكنى فى الشقة الصغيرة، فى الطابق الأرضى، من البناية ذات الطوابق الستة بشارع الأهرام، ظلت الشقة الملاصقة مغلقة، تصورت سفر سكانها خارج القاهرة، أو أنها بلا سكان.

صحوت – فى الليلة الرابعة – على ترامى أصوات أمام الشقة، رأيت – من جانب الباب الموارب – سيدة ترتدى عباءة واسعة من الحرير، ذات كمين واسعين، يخفيان يديها، وشابين، يحملان حقائب وصناديق كرتون إلى الشقة المجاورة.

أغلقت الباب دون أن أتبين الملامح جيداً، شغلتنى تصورات حول ساكنى الشقة، هل هم كثيرو العدد؟ أو أنهم – لضيق الشقة – أسرة صغيرة، أو أنه ساكن وحيد – مثلى – يسكن بمفرده؟

– صباح الخير.

كانت العادة تأخذنى دون أن ألتفت إلى الباب المغلق. وقفت السيدة على الباب الذى انفتح على وسعه:

– جار جديد؟

فى تلعثم:

– إن شاء الله.

علت شفتيها ابتسامة:

– حمد الله على السلامة.

ثم وهى تتهيأ لدخول الشقة:

– اسمى جنات.. خالتك جنات.

حين نظرت فى عينيها، داخلنى شـعور بالألفة، تمتلك طلة آسـرة، لفت شـعرها بمدورة حمراء، بدت ممتلئة فى الفسـتان الأبيض، زينت صدره بوردة من الكانفاه.

– أنا مازن.. موظف بالتليفونات.

قالت فى عفوية:

– لا أبناء لى.. اعتبرنى أمك.

أردفت لنظرتى المتسائلة:

– الزواج ليس شرطاً كى تحقق المرأة أمومتها!

استغربت نظرتى إليها، لم أستطع تخمين عمرها، هى بين الأربعين والخمسين، لكن تفصيلات الجسد، وملامح الوجه، غابت فى منار التى انبثقت – بعد سنين طويلة – داخلى.

أول ما دخلت شـقتى، اتسـعت عيناها بنظرة دهشـة، ثنت ذراعيها، وأمسكت بيديها جانبى وسطها:

– شقة والاّ سويقة؟!

انعكس خلو الشـقة من الأثاث فى عينيها بما يشـبه الإشـفاق، عدا تناثر الملابس والصـحف والكتب المتناثرة، اسـتند إلى الحائط فوتيل،

أتمدد عليه وأنا أشاهد برامج التليفزيون فى موضعه بين الحجرتين، فى حجرة الجلوس تقابل الكرسيان والكنبة الأسيوطى، فى الوسط ترابيزة خشبية مستطيلة، سطحها من الزجاج. وعلى الجدار صورة لمرسى القوارب فى المينا الشرقية، اقتطعتها من مجلة ثقافية.

لم تدخل حجرة النوم، وإن أطالت نظراتها إلى السرير السفرى، والكرسى المعدنى، والدولاب ذى الضلفة الوحدة، والمكتب الصغير لصق الجدار.

وهى تمضى إلى الباب، ألقت – بجانب عينها – نظرة على المطبخ: الحوض الخالى، والأدوات الساكنة فوق الأرفف، وعلى الجدار:

– من يطبخ طعامك؟

المطبخ ضيق، يسع ثلاجة صغيرة، وبوتاجاز شعلتين، ورخامة بامتداد الحوض، ورفاً للأوعية.

ترددت فى الإجابة، معظم طعامى سندوتشات فول وطعمية من الشبراوى، خلف العمارة، أو جبنة بيضاء وزيتون وحلاوة من محال الكورنة، أكتفى – ظهر كل خميس – بوجبة خضار وأرز، فى مطعم الإمفتريون، قد ألجا إلى ما فى الثلاجة من الجبن والحلوى والطعام المجمد، أزمعت أن أحتفظ براتبى من أول الشهر إلى آخره، خشيت

الاعتذار، أو الرفض، أو المساعدة فى هيئة من يمنح صدقة.

تذكرت تعبيراً قرأته، وإن نسيت قائله: " العزلة شيء جميل، لكن من المهم أن تجد شخصاً ما يقول لك إن العزلة جميلة".

عصر اليوم التالى، فتحت الباب لطرقات براحة اليد، مدّت صينية، فوقها أرز باللبن وثلاث كعكات:

– من صنع يدى.

لم يعد يمر يوم دون أن ألتقيها، تضغط على الجرس لأفتح الباب، أو تدفع الباب إن كان مواربا، وتدخل، تجلس فى أى موضع.

الشقة متطابقة – فى مساحتها وشكلها – مع شقتى، الحجرتان المتلاصقتان فى مواجهة الباب، تفصل الصالة الصغيرة بينهما وبين المطبخ والحمام، أشاهد – من وقفتى على الباب – أثاث حجرة نوم. أعرف من مقاعد الأنتريه البنفسجى فى الحجرة المجاورة، أنها خصصت للجلوس، هذا هو المعنى الواضح، وإن لم تدعنى إلى الدخول، تمضى إلى داخل المطبخ والحمام، فطنت إلى أن بداخل المطبخ باباً يفضى إلى منور. تعود بما تقدمه لى، تلتقى الشقتان فى مواجهة البنايات المقابلة، وإن فصل بينهما جدار من الطوب الأحمر.

لم تبلغ صداقتنا حد أن أبادلها الزيارة، أطرق بابها، فتأذن لى بالدخول. أتوقع طرقاتها فى أى وقت، تدخل – بعفوية – إلى الصالة،

تحرص على فتح الباب والنافذة، دفعاً – ربما – للظنون والتأويلات، تجلس – فى الغالب – على الكرســـى المجاور لباب حجرة الجلوس، ربما أرفقت جلستها بالقول: عزمت نفسى على فنجان قهوة!

لمحت شـــيئاً فى ركن الصـــالة، نزعت فردة الحذاء من قدمها، واتجهت ناحيته، فاجأته بضربة دهسته:

– الصراصير!.. مشكلة الأدوار الأرضية!

ما يلفت نظرى فى تعبيراتها، ضـــحكة رنانة، طويلة، تعلو فجأة، تنتهى ببحة متحشرجة، تثيرنى.

شـــعرت – من انتظام أنفاســـها – بوقفتها ورائى، تتأمل وقفتى إلى الجدار، أعلق – على مسمار ثبّته فيه – خريطة لأحياء الإسكندرية.

– لماذا تركت مدينتك؟

أدرت رأسى:

– قد تجبرنا الظروف على ترك ما نحبه.

سألتنى عن بحرى، أسباب انتقالى من الإسكندرية، من هو سعد؟ لماذا لم تستكمل تعليمك؟ كيف تدبّر حياتك؟ لماذا لا تصلى؟

ظلت صامتا، خشيت أن يبين الارتباك فى صوتى.

ومض فى رأســـى تشـــابك صـــور ورؤى: أذكر من أبى لومه الدائم لأمى أنها تطيل شـــعرى، وتعقصـــه كالبنات، وتلبســـنى ملابس البنات،

وتسـرف فى حنانها لى بما يغضـبه، يقول لى المدرس: لو أن المدارس توافق على ما دون الصـــفر، فهى الدرجة التى تســـتحقها، أعتذر عن رحلات المـدرســـــة إلى مطـار الـدخيلـة، وحـدائق النزهـة، وحـدائق أنطونيادس، وقلعة قايتباى، ومعهد علوم البحار بالأنفوشــى، أهمل نظرة الاسـتغراب فى عينىّ أمى. نصـائح أبى، يضـمنها أسـئلة: ألم أقل: لا تنظر وأنت تتكلم فى عين من تكلمـه؟ ألم أنبهك بـألا ترفع صـــوتك؟. يعلو صوت سعد ناصحاً: لا تلق السنارة فى الماء، دون أن تعد نفسك لجذب السمكة، أرهف السمع لترامى وقع أقدام أبى فى الصـالة، أدس " ألف ليلة وليلة " تحت الوسادة، أبسط فى يدى كتاب المدرسة.

حين يتقدم بنا العمر، فإن الحنين يشتد إلى الماضى.

الزمن الحقيقى يختلف عن الزمن الذى نعرفه بالثانية والدقيقة والساعة واليوم والأسبوع والشهر والسنة والعقد والقرن إلى الدهر.

زمنى الذى أطمئن إليه هو ما أحياه، وأتذكره.

لماذا استدعت رؤيتى لمها ما كنت نسيته من منار؟

حصلت من منار على ما لا أتصور أنى سأحصل عليه من مها. ما كان طبيعياً فى سن صغيرة، يصعب حدوثه، أو تصور حدوثه، فى الكهولة.

التلبية وحدها ما أطلبه، الخضوع وكتم الأسئلة، لا أتوه فى المدخل، وكيف أصل إلى اللحظة التى لا أجاوزها، ترضى ما بداخلى.

تمنيت أن أعاملها باعتبارها منار، أعادنى إلى نفسى، إلى ما تمنيت فعله، أن مها ليست منار، السنوات متقاربة، لكن ما كنت أجده فى منار يغيب عما قد أجده فى مها. لم أحب منار، بمعنى أن حياتى تكتمل بها، فهى صغيرة، وكنت أصغر من أن أجدها فى موضع الحبيبة، الجمال النائم هو ما أتوق إليه، لحظات نورانية، منفصلة عن العالم الذى يحيط بنا.

مها مجرد طفلة، لا تعرفنى.

رمقتنى بنظرة متســـائلة، عند اقترابى منها، ربما أكثر مما يجب، نفضت تصورى للاستنكار، لصغر سنها.

هل تهبنى البنت ما كانت تهبه لى منار؟

دفعنى السؤال المفاجئ – فى داخلى – للالتفات ناحية البنت.

هل توافق؟

حتى لو وافقت: كيف تواتينى الجرأة؟!

أنتبه لإيقاع خطواتها، ألفته عند نزولها من الســـلم الرخامى، أتابع انطلاقها نحو بـاب البيـت،أبحـث عمـا أذكره من منـار، البنـت التى أعادتها الذاكرة إلى حياتى، تكرر فتحى باب المنور، أتبين ما إذا كان شيء سقط من الطوابق العليا.

ظل الميل إلى تكرار ما فعلته منار كامناً فى ذاكرتى، أعرف أن مجرد التفكير فى هذا الميل خطأ، لكننى لم أخلقه فى نفســـى، بل خلقه الله، هو الذى ثبّت الصـــورة القديمة فى ذهنى، يلح فى الاســـتعادة والتكرار. السر لا يصبح سراً إذا رواه الإنسان، أزمعت أن أحتفظ بالسر – هل هو كذلك؟ – يظل مودعاً فى صدرى، لا أبوح به.

شـغلتنى الفكرة، تضـخمت فى داخلى، تحولت إلى ما لا أقوى على مغالبته، فى لحظة ما، لفنى خوف أن أكون قد صـرت مهووسـاً بما لا أفهمه أنا نفســى، بما تغيب ملامحه، تسـيطر على أفكارى وتصـرفاتى،

ونظراتى إلى الآخرين، إلى الأخريات.

تبعتها فى زحام شـــارع إبراهيم اللقانى، عبرت تقاطعات ميدان روكسى، حتى أول شارع الخليفة المأمون، مالت – من الجانب – فى اتجاه الشارع الموازى لمترو مصر الجديدة.

قبل أن تميل إلى شارع المقريزى، نظرت خلفها، أدركت – من يدها الملوحة، وابتسامتها – أنها كانت تعرف سيرى وراءها.

هذه الفتاة، وضـــعتها الظروف على طريقى لتبدل حياتى تماماً، لتحرك فى داخلى مشاعر كنت نسيتها، أو أنها تلاشت من ذاكرتى. أدركت أنها تسكن تفكيرى، تخالط صورتها انشغالى بأشياء ضرورية، الطبيعة الإنسانية ليست معدناً ثابت الخواص، فتظل على حالها حتى النهاية. أستعيد الرائحة، أو أنها تظل فى أنفى، وميض عينيها، صوتها الخافت كالهمس، جسدها الطفل، المكتمل التكوين.

تبينت أنى لم أبتعد – رغم انقضـــاء الســـنوات – عن تلك الأيام البعيدة، أتكلم عن منار، علاقة السنين الفائتة، ما لا أذكره من السنين، وإن كنت أيامها فى غير السحنة والشكل والمزاج.

بدا ذلك الموقف القديم الوامض، كأنه عقدة أعيش فيها، لا أستطيع أن أقاومها، أو أحلها، كلمة " خلاص " أتنبه لتناثرها حولى، تجتذب سمعى، تعيدنى إلى منار، وجسدها المستلقى، وسؤالها.

تلح على ذهنى لأيام، ثم تختفى. أتصـــور أن الأمر انتهى، لكنها تعود بالإلحاح نفســه، أســلم نفســى لرؤى منار، فى أوضــاع حقيقية ومتخيلة، تتقاطع بالكلمة ذات الرنين: خلاص، أســتعيد النظرة التى أحبها فى عينيها، أنفها الدقيق، ذراعيها الدائمتى الحركة، تجتذبنى الدوامات الواسعة، تعود بى إلى حيث بدأت.

أزمعت أن أترك ورائى كل ما حدث فى الإسكندرية، أنساه كأنه لم يكن، أخطو فى أرض لم يسبق لى السير فوقها، أعرف ناساً غير الذين عرفتهم فى الإسكندرية.

أعانى حرجاً فى البوح بما أخفيه، بالسر الذى طال كتمه، وأخشى – لو تكلمت – تأثيراته.

نحن لا نختار ما ننساه، قد نتذكر أشياء تمنينا لو أنها سقطت من الذاكرة، وقد ننســى ما نعتبره ذكريات جميلة، رقدة منار الهادئة، المســتكينة، أراها فى صــورة مجلة، مشــهد ولد وبنت على شــاشــة التليفزيون، ترامى الكلمة التى كانت منار تتهيأ بها للقيام: خلاص.

أحاول إبعادها عن ذهنى، لكنها تعاود الإلحاح. يظل طيفها، ملامحها، فى نفسى، كأنها ثبتت فى رأسى، لا تزايله.

أدرك نظرات الاستهجان التى ستحرقنى، عندما أتــحدث عن الجسد الذى أخذتنى تكويناته، كهل يســيء إلى نفســه، وإلى صــبية صــغيرة،

وضعها فى غير سنها.

غلبتنى الحيرة، لا أدرى: هل أتكلم؟ هل أحاول الاقتراب، أو أبتعد؟ هل يبدو ما أفعله طبيعياً، أو تصدنى بما لا أتوقعه؟

أعانى الرغبة فى لمسها، والخوف من رد الفعل، أخاف أن تبدى ما لا أتوقعه، ويؤلمنى، لم تتوثق علاقتنا بما يجعل تغاضيها وارداً.

يتكرر نزولى إلى الطريق، أتباطأ – فى عودتى – عند المدخل، الدرجات الرخامية الخمس، البسطة الممتدة إلى الأبواب الثلاثة، والسلالم الجانبية، أحدق فى صندوق البريد، كأنى أفتش عن رسائل لى، أعرف أن العنوان جديد، رسائل الهيئة أتسلمها فى مدخل السنترال، أعيش التوقع أن تصعد مها من الشارع، أو ننزل إليه، لا أعد فى نفسى كلمات أقولها، لا أسأل، ولا أبدى ملاحظة، مجرد أن أراها، أستعيد لحظات بعيدة، تصورت أنى نسيتها. أرنو – فى ميلى ناحية الشقة – إلى منور السلم، كأنى أتوقع من تشغلنى رؤيته.

أزمعت – لو أتيح لى لقاؤها – تبديل العبارة التى أعددت نفسى لقولها، أو عدم نطقها، أنت فى سن ابنتى، أجتذبها بكلمات تزين لها ما أريد، الجرأة هى ما عكسته كلماتها وتصرفاتها، لكنها لم تلامس الغابة المشوقة لوطء قدميها، تصدنى عبارات تؤلمنى عفويتها، جدار تصنعه

دون تعمد، يعرونى العجز عن محاولة النظر من فوقه، أكتفى بصـــفو السماء، وخلوها من السحب.

لو أنها فطنت إلى متابعتى لها، ربما أخبرت أهلها بتصـرفى، وربما وجدوا فى التصرف ما يثير القلق.

هل أدعوها للاطمئنان من ناحيتى، أو أقنع نفســى بالمســافة التى تفصلنا؟

هل أعثر على الكلمات التى أجيب بها عن أســئلة – تدينني – لا أتوقعها؟!

الرغبة تحيا داخلى، تناوشنى، تريد أن تظهر، أعانى كى أخرج عن صمتى، أبوح بما أكتمه.

قالت الست جنات بعفوية:

– الحاجة إلى الجنس ضـــرورة حتى نهاية العمر.. هل يمتنع الإنسان فى شيخوخته عن الطعام والنوم؟

لم يكن السؤال قد خطر على بالى، ولا فكرت فيه من قبل.

حين فطنت إلى ما حولى، كان كل شـــيء – بتقدم العمر – قد أصـــبح متأخراً، أشـــعر أن الكهولة تلاحقنى بلا إبطاء، وبقســـوة، وإن تنامت الألفة بيننا بما لم يخطر فى بالى.

كل شيء صار متأخراً.

نزعت حذاءها، مدت ساقيها على الكرسى المقابل، وأسندت رأسها إلى مسند الكرسى.

– أحبها.

أردفت وهى تشير إلى فايزة أحمد فى شاشة التليفزيون:

– ليست جميلة، لكن صوتها هو الجمال نفسه!

افترت شفتاها عن ابتسامة صامتة، عندما لمحت نظرتى المتفحصة لساقيها.

فاجأتنى بالقول:

– لماذا لا تتزوج؟

الزواج؟

لو أن علاقتى بفردوس ســـارت فى الطريق الطبيعية، ربما كنت تزوجتها، لكنها اعتذرت عن عدم مواصلة علاقتنا بما لم أفهمه.

شعرت بالكلمات متثاقلة:

– ظروفى المادية لا تسمح.

– مرتبك على مرتبها.

– من يضمن أنها توافق؟

ابتسمت فى تخابث:

– صداقة النساء ليست مستحيلة.

قلت بلهوجة:

– أخجل أن أعرض نفسى.

وهى تزيل خصلة الشعر المتهدلة على عينها:

– أول مرة أشاهد رجلاً يخشى الزواج لأنه خجول.. الخجل يضيّع فرصة المرأة وحدها!

ودون أن تجاوز عفويتها:

– لا شأن للسن بما يحب الإنسان ويكره.

أشحت بوجهى كى لا تعرف أنى لمحت ساقيها، ضبطت نظراتى

تلاحقها، تركز على الســـاقين العاريتين، مدملجتين تســـتحثان على ملامستهما، تخيلت مداعبة أصابعى. تصعد إلى الركبتين، أهمس فى أذنها: لماذا لا تستلقين وتفتحين ساقيك؟! أحيطها بساعدي، يفح لهاثى فى أذنها، ألمس ثدييها، انتصـــابهما – من وراء البلوزة – يغرينى بأن يمد يدى، أقضـــم الحلمتين بشـــفتين شـــبقتين، أعانقها دون أية ملابس تفصـل بين جسـدينا، يختلط عرقى وعرقها، أدخل فيها، نصـير جسـداً واحداً. تضـــج الغابة بالزئير والعواء والفحيح والنعيق والنهيق والهديل والصهيل والزمجرة، تتعالى آهة ذروة النشوة.

حرصت أن يغيب عن التفاتها وميض الرغبة فى نظراتى.

شـــيء ما تبدل فى داخلى، شـــيء غامض، لا أدرى كنهه، جذبنى إليها، منعنى الخجل، ولعله الخوف، من أن أصارحها بما فى نفسى.

تبينت – ذات مغرب – أنى أتحســس ثنية الكرســى التى نضــحت بعرق فخذيها، لامست أنفى – بتلقائية – متشمماً.

واتتنى جرأة لم أعرف أنى أمتلكها:

– هيئتك رجل!

شوحت بيدها:

– لم ترنى على السرير.

وداعبت طرف شعرة فى رأسها:

– لا أصبغ شعرى، هذا لونه الطبيعى.

اصطدمت يدى – بعفوية – بكوب الشاى، أحدث تهشم الزجاج صوتاً عالياً، وتناثرت طرطشات اللون البنى على جلبابى.

لاحظت أنها رفعت الكلفة – للمرة الأولى – فى كلامها معى، لم أكن هيأت نفسى لما قالته، أحسست بالارتباك فى إغماض عينىّ، وارتعاش صوتى.

ومضت عيناها بالشك فيما أضمره.

ثمة شيء تصاعد فى أعماقى، وطفا على مشاعرى، فى داخلى ما لا حصر له من الأفكار والمشاعر والألوان والإيقاعات. تخيلت أنى أمسك بكتفيها من الخلف، أديرها ناحيتى، أدنو بوجهى من وجهها، اعتصر شفتيها فى قبلة طويلة، أسحبها من ساقيها الممددتين، ألقى بها على الأرض، يختلط العرق والأنفاس.

حل صمت، لم أستطع خلاله أن أتدبر ماذا أقول، تلاشت الرغبة فى نطق الكلمات التى أعددت نفسى لقولها، التردد – ولعله الخوف – ألجم لسانى، هو عقدة تسكننى.

لجأت إلى الاستمناء، فراراً من ضغط لم أستطع مغالبته.

من طبعى – كما رويت لك – أنى أخشـــى المواجهة، والمجهول، وما لا أعرفه. أتردد فى طرق باب الغرفة الواحدة والأربعين، المغلقة، لا أبدى آراء، ولا ملاحظات تدينني، أفضـــل الثابت والمســـتقر، لا أبدل المكان الذى ألفته، حتى الكرســـى داخل القهوة، أحاول ألا أبدله فى أوقات ترددى عليه.

بدا لى ثروت الزيات ودوداً، وإن اتسـمت نبرات صـوته بما يشـبه التعالى، عدا مناقشات السنترال، يشارك فيها بآراء، وأكتفى بالإنصات، لم ينشـــأ بينى وبينه حوار ما، نبرته المتعالية فى تعقيبه على آرائى المرتبكة تلزمنى الصمت.

– أنت غريب فى القاهرة.. لماذا لا نتزاور؟

كتمت ما اعتدته من عدم تلبية دعوات الزيارات الأســـرية، خجل قديم فى طبعى، تغيب بداياته، وإن كنت أجد الإرهاصـــات فى تحذيرات أمى بألا أبتعد فى ألعابى عن البيت. مرة وحيدة دخلت سينما نورماندى بمفردى، فضلت آخر أيام العرض، يضايقنى الزحام.

وجدت فى الدعوة ما يستحق التأمل.

أنا بلا أقارب فى القاهرة، ولا حتى أصدقاء.

عهدت إلى قناوى أن يدفع – أوقات وجودى فى السـنترال – إيجار الشـقة وفواتير الكهرباء والغاز، صـلتى بزملاء السـنترال ترافقنى إلى

الباب، لا يخطر فى بالى إلا أصـــداء آراء المهندس عاطف غيث، وما يدور حولها من آراء مقنعة، وسخيفة.

تحدث – وأنا أحتسـى كوب الشـاى بالنعناع – عن الكرم المتأصـل فى أسرته، وأنه يوجد – إلى جانب الشاى بالنعناع – مشروبات أخرى، مثل القهوة والينسـون والعنّاب، وإن كان صـنع المشـروب الأخير يحتاج إلى وقت.

قبل أن أتهيأ للقيام، نظرت إلى تهيؤ مماثل فى وجهه للكلام.

أومأت برأسى أستحثه على القول.

نطقت ملامحه بالتأثر:

– أعانى مشكلة قد تجد الحل لديك.

حاولت أن تعكس ملامحى اهتماماً حقيقياً.

أضاف فى تأثره:

– خطيبتى [لم أكن أعرف الأمر من قبل] أوصـلت العلاقة بينى وبينها إلى طريق مســدودة، هل تأذن لى بزيارتك فى شــقتك لتصــفية خلافاتنا؟

– أنا لا أعرف خطيبتك، ربما شعرت بالحرج فى وجودى!

– لســت مضــطراً للجلوس معنا. شــقتك – كما رأيتها – حجرتين وصالة، يمكن أن تجلس فى الصالة، أو فى حجرة النوم، حتى لا نعانى

الحرج فى مناقشة أسباب الخلاف.

زارنى الزيات برفقة خطيبته.

لم أدقق فى ملامحها، لأنه دفع بها إلى حجرة الجلوس، ما أذكره فى التقاطى السريع لملامحها، كان جيداً، ممشوقة القوام، تحيط رأسها بإيشارب، ويخلو وجهها من المساحيق.

تعددت الزيارات، أجلس فى الصالة، أتوقع تكة ترباس الحجرة، والزجاج المغبش للنافذة الموصلة بين الحجرة والصالة يفصل بين المكانين تماماً.

قلت لنفسى – ليلة – وأنا أعانى الانتظار السخيف –: هل الخلاف بين ثروت الزيات وخطيبته أعمق من الخلاف بين الدول المتحاربة؟!

رفعت نظرة استياء، أو استغاثة صامتة، إلى النافذة المغبشة. تبينت – بالمصادفة – شقاً رفيعاً بطول المسافة بين النافذة والجدار.

رأيت ثروت الزيات وخطيبته فى عزلة عن الدنيا كلها، من خلال انغماسهما فى عناق، تشابك فيه جسداهما العاريان، فلم أعرف – لضيق مساحة الرؤية – كيف تداخلا، وإلى أى مدى!

أدركت طبيعة ما يحدث، لكننى بقيت صامتاً، لا أعرف كيف أتصرف.

لم أبتعد عن وقفتى أمام باب الحجرة، حتى علت تكة المفتاح.

ســحبت كتف الزيات، وهو يدفع البنت خارج الشــقة، ويرفع يده – كالعادة – مودعاً:

– هذه البنت ليست خطيبتك!

مد يديه الخاليتين من دبلة أو خاتم، وكست وجهه نظرة بريئة:

– كلمتك عن خلاف الخطيبين فعرفت أنك فهمت سر العلاقة.

وزادت نظرته البريئة اتساعاً:

– ألم تكن تعرف ما نفعل فى الحجرة ؟!

شعرت بما لا أعرفه فى داخلى، يذوى، يتهاوى، يأخذنى إلى أعماق لا أعرفها، ولا إلى أين تنتهى، ربما السذاجة بعض ما تدل عليه قسمات وجهى. ثمة ما يحرض البعض على التعامل معى فى ضـــوء هذه السذاجة، التى لا أعرف سرها على وجه التحديد، وإن كنت أجدها سبباً لكل ما عانيته – فى حياتى – من سخافات غريبة.

قال لى ثروت الزيات حين التقينا فى السنترال:

– ألا زلت واخد على خاطرك؟

ثم وهو يحدجنى بنظرة مستخفة:

– لكل زمن لغته، لو أنك عجوز كنت ســأعيب عليك عدم فهم لغة العصر!

ذلك الفعل القديم منطقة عانيت حتى صـــنعتها، لا حيلة لى – بعد

أن تركتها – فى العودة إليها، لا أســـتطيع – بتأثير الزمن، وبعوامل كثيرة – أن أعود إليها.

منار طيف، شحب – بتوالى الأيام – ثم اختفى.

أشرد فى تهويمات وتصورات، يتسلل صوتها: خلاص، يعيدنى إلى اللحظة التى كأنها التصقت بذاكرتى.

أشياء كثيرة تلوح لى، كيف ألتقط طرف الخيط؟

أعانى إلحاح المشـــكلة، ما أريد أن أبوح بـه، والبحث عن الأذن المنصتة.

أشـعر أنى بحاجة إلى المشـى لأعيد ترتيب أفكارى. تمنيت أن أكلم شـخصاً ما، أعطى له وآخذ منه، أنتبه فلا يتحدث بما يضـايقنى، أجلس إلى من ينصحنى: ماذا أفعل؟

أتردد، ثم أصـمت، لا أفاتح الآخرين فى شـيء يخصـنى، أخشـى الملاحظات، أو التوبيخ، أو السخرية.

أغمضـــت عينىّ، حاولت أن أســـترجع ملامح منار، هل كانت مشـــابهة لهذه البنت؟ إن لم يكن ذلك هو ما أعاد منار إلى ذاكرتى، فلماذا التذكر وإيجاد الصلة بين الحادثة القديمة وما يبدو إيقاظاً لها؟

أعرف أن منار – إن كانت ما تزال حية – تقدمت فى العمر، ربما صـارت أماً، يختلط ما أراه وما تسـتدعيه الذاكرة: الوجه الجميل المنمنم

الملامح، الشـــعر الأســـود، الناعم، المهوش، الغمازتان فى الوجنتين المصطبغتين بالحمرة، الصدر الصغير تتوسطه ليمونتان تشيان باقتراب البلوغ، أو بلوغه، الســـاقان المدملجتان، حتى الشـــعر المنســـدل خلف الظهر، لا أفرق إن كان لمها الســـاكنة فوقى، أم منار التى لم يغيبها تباعد السنوات.

تسللت الفكرة إلى رأسى، لما استقرت، بدأت فى التضخم إلى حد شغل الذهن، استحوذت على تفكيرى تماماً. تعددت أوقات استعادتى تلك اللحظات القديمة، أحدق فى الجســد المتكور، بلا حركة، ولا كلام، تنهض متسائلة: خلاص؟

أرد بإيماءة، أو بترديد الكلمة، وأنا أتوه فيما لا أتبينه.

جسدك وردة، علاقة المرء بالوردة فى اقترابه منها، ملامسته لها، الرؤية من بعيد كرؤية الصـــورة، تخاطب النظر، لكنها لا تنفذ إلى المشاعر، إلى الوجدان. يا عروس البحر، لست المخلوقة الشائهة فى مدخل مبنى الأحياء المائية، لكنك الســـحر والقوة والطمأنينة، قلبى بحر تحسنين العوم فيه، أنت حورية الجنة، ست الحسن والجمال، سمكتى المفعمة بالحياة، ســـندريللتى الصـــغيرة، اكتمال البدر، أنفاس الســـحر، نسيم الصباح، سطوع الشمس، تآلف الموسيقا وقصائد الغزل والرقصات الملونة.

مشاعر ابن السادسة عشرة، أخضعها لابن التاسعة والثلاثين، لم أكتم مشاعرى، لا تبين فى تصرفاتى، ولا ما أقوله، أتشاغل بالكلام، أتظاهر أنى أتكلم، أختلق مواقف، ألمس فيها جسدها، ما تبلغه يداى من الجسد الذى يجذبنى بما لا أعرفه. الرعشة تسرى من أطراف أصابعى، منابع النشوة فى الجسد، أستكين إليها، تتواصل اللحظات، يأخذها الزمن السرمدى، يحلق بها فى سماوات لا نهاية لآفاقها.

أفكر فى أن أقاسم جنات سرى، لكن الخجل، وربما الخوف، جدار، عائق، أمام محاولاتى للبوح، أشعر بثقل ما أعتزم حكايته، كيف أقوله، كيف تتصت إلى كلماتى. أقلب المعانى والتعبيرات والكلمات، أهمل ما قد لا تقتنع به، أو ترفضه، ألوك الكلمات فى فمى، أهم بنطقها، تتصاعد التحذيرات والمخاوف، أخشى المجهول، واللامتوقع.

أحاول أن أحرر لسانى ليتكلم، ينطق بما فى داخلى، يعبر عن المشاعر التى طال حبسها، الرغبة والتوق والأمنية.

تمنيت أن يأخذنى الانفعال، فأبكى على كتف جنات.

أدركت أن الأمر ليس بالبساطة التى تصورتها، وأنها قد تواجهنى بعدم الفهم، أو الاستياء، أو الغضب.

لم أتصور ركض الأيام بهذه الصورة.

أتسكع فى مصر الجديدة بلا هدف، لا أصنع شيئاً، اختلاط الطابع الإســـلامى بالطابع الأوروبى، القباب العربية، الأعمدة الحجرية الهائلة الواصلة بين الطوابق، الشبابيك العالية، الشرفات الدائرية، والمستطيلة، والمربعة، المقرنصـــات، أميل إلى شـــارع الحجاز، ومنه إلى ميدان روكســى بزحامه الصــاخب، أخترق الشــوارع المتفرعة منه، حتى نادى هليوبوليس، غالبيتها يسكنها الهدوء، أستأنف السير حتى شارع الخليفة المأمون، أو أمشـــي فى شـــارع الميرغنى الطويل، على يســـارى مبنى الوزارة الاتحادية حتى تقاطعه مع العروبة، أعود من الطريق نفســـه، أو أتخلل الشـــوارع الجانبية إلى شـــارع الأهرام. ربما أخذت المترو فى تفريعاته الثلاث: النزهة، عبد العزيز فهمى، الميرغنى.

الكشــك على ناصــية الطريق، أشــترى احتياجاتى منه، الســوبر ماركت – على بعد أمتار – يصـدنى – بأبهته وأضـوائه – عن الدخول، يجتذبنى الكشــك بالألفة، يأخذنى الكلام، وقفتى إلى الرجل الذى بدا فى أواخر الثلاثين، وإن قدم نفسه لى مسبوقاً بكلمة " عمك "، عمك زناتى.

ربما ملت إلى شـــارع بغداد، فى موازاة شـــارع عثمان بن عفان، يأخذنى طابعه الأوروبى، أشبه بالشوارع المتفرعة من شوارع وسط البلد بالإسكندرية، إضافة إلى البواكى التى تذكرنى بقراءاتى عن مدن القاهرة القديمة: البنوك والبازارات وشــركات الســياحة ومحال الملابس الجاهزة

والمجوهرات والتحف والمقاهى ومحال الخبز الإفرنجى والحلوى. أطيل التوقف أمام الواجهات الزجاجية، أتأمل البضائع المعروضة، أدور حول البنايات إلى شارع إبراهيم اللقانى، أتبين أن الوقت سرقنى، أعود إلى البيت.

سألت جنات عن معنى كلمة كوربة، هل هى من الكرب؟

رفت ابتسامتها المشفقة:

– الكوربا.. عرفت من عبد العليم أنها حجر كريم.

اكتفيت بالقول:

– هكذا تبدو.

خطر فى بالى – ذات مغرب – أن أتعرف إلى المكان الذى غنى فيه عبد الحليم حافظ " فى يوم.. فى شهر.. فى سنة" . حدست أنه الخلاء المجاور لحديقة الميريلاند قبل أن تشغله البنايات.

يأخذنى السير فى الشوارع المتقاطعة، الخالية، لا يشغلنى أين أذهب، ولا أحاول حتى الالتفات إلى ما بداخل الدكاكين والنوافذ المفتوحة، ولا إلى الأصوات المترامية من أماكن لا أراها. ألتقط الأسماء من اللافتات الحديدية الزرقاء: نزيه خليفة، شريف، إبراهيم، الصباغ، رمسيس، فكرى باشا، البوستة، بطرس غالى، المعهد الاشتراكى، سيد عبد الواحد، بواكى شارع بغداد مشابهة لشوارع بدايات مصر الجديدة،

وإن اختلفت فى الجو الأوروبى الذى اجتذبنى بنوعية المحال المتلاصقة، أشبه بشارع شريف بالإسكندرية، والشوارع المتفرعة منه.

أجاوز دور سينما ومدارس ومساجد وكنائس ومعبداً لليهود ومطاعم ومقاهى ودور سينما وفنادق ومحال تصوير، ربما سرت فى شارع الميرغنى حتى الانحناءة المؤدية إلى كلية البنات.

لم تكن تهمنى نهاية السير، يشغلنى أن أذهب إلى أى مكان، أبتعد – بالفضول وحب الاكتشاف والدهشة – عن كل ما يحيط بى.

قاومت الإجهاد بعد أن بلغت سطح البناية ذات الستة عشر طابقاً، لا سكان، ولا حراس، حتى البناء لم يكتمل.

قال قناوى: إن الأمن – لم يحدد لى الجهة – تبين علو العمارة، بما يتيح النظر – من السطح والطوابق العليا – على قصر الاتحادية، كل ما فى القصر من بنايات وحدائق وساحات. ظلت العمارة خالية، عدا الطابقين الأولين، كان البنك المركزى قد شغلهما قبل أن ينتبه الأمن.

فطنت إلى أنه يعانى ثقلاً فى لسانه، يحركه فى صعوبة، ويدغم نهاية الكلمات.

ملأت اللهفة عينى جنات:

– أين كنت؟

– أتأمل مصر الجديدة.

– ماذا تقصد؟

– كنت فى سطح عمارة البنك المركزى.

سطح العمارة يطل – من جوانبه الأربعة – على قصر الرئاسة، والمساحات الخضراء فى نادى هليوبوليس، وقصر البارون امبان بعمارته القوطية وغموضه وسحره وأسراره الغائبة، والشرفات، والمآذن المتناثرة، المتقاربة، والقباب العربية، والمنارات، والبواكى، وتوسط كنيسة البازيليك ما يشبه الميدان المفضى إلى شوارع كثيرة، وقضبان المترو تشق الشوارع الواسعة، ومهبط الطائرات فى نهاية الأفق.

لطمت خديها:

– مجنون.. تريد الموت؟

أدركت – من نظرة عينيها – أن الخوف ظهر على ملامحى، تملكتنى عاطفة غامضة، غريبة، تبدو كمن تعانى مشكلة ما، لكنها تكتم رغبتها فى البوح، كأنها تخشى نتائج لا تعرفها، ويصعب أن تتبينها، اعتدت صمتها، تخدشه بدعابة، أو نكتة، تتبعها ضحكة ذات رنين، تعود إلى صمتها، ثم تلتقط طرف خيط حزن، تتذكر ما كان أحزنها، فتنخرط فى البكاء، لا تثبت على انفعال، وإن اتسمت تصرفاتها بالتعاطف والطيبة.

وأنا أحاول التغلب على ارتعاشة صوتى:

– هل الفرجة عقابها الموت؟

التمعت عيناها بالدمع:

– دفع عبد العليم حياته ثمناً لصعود السطح.

***

النافذة تطل – من اليســـار – على العمارة المجاورة، تفصـــل بين العمارتين طرقة مبلطة، وتطل نافذة أخرى على البناية المتهدمة.

لاحظوا تعدد وقوف عبد العليم فوق سطح العمارة المواجهة، تشرف – كما تعرف – على مبنى الرئاســـة. أخذوه من البيت، قالوا: مجرد أسئلة، وتعود، لكنه لم يعد.

لم أعرف أين أخذوه، ولا متى ســـيعود، وإن داخلنى اطمئنان أنى سأراه ثانية.

فتحت الباب – ذات صباح – على طرقات خافتة.

لم يكن عبد العليم الذى أعرفه.

آلمنى قوله إنه حين اصطدمت عيناه بمرآة التاكسى، تذكر الأشهر التى أمضاها فى المعتقل دون أن يتاح له رؤية ملامحه.

– عذبوك؟

رمقنى بنظرة متسائلة، غاضبة، ومال بذقنه على صدره، وسكت.

عرفت أن النظرة التى تدرك تغنى عن توجيه الأسئلة، لم أعد إلى سؤاله عن فترة الغياب، وإن حاولت مساعدته على البوح، أشير بعبارات مواساة، ربما تدفعه إلى الكلام عما جرى، لكنه ظل على هدوئه، وصمته، وشروده، كأنه يتأمل ما يراه وحده.

لم تتغير ملامحه، حتى عينيه ظلتا على اتساعهما، لكن انطفاء النظرات بدّل الكثير، غاب عبد العليم الذى عاشرته زمناً، حل عبد العليم آخر، يثير القلق والخوف والإشفاق.

حدّست – وإن لم يتكلم – أنه تحمل ما لا يمكن احتماله: الارتعاشة فى قسمات وجهه، استغراقه فى الشرود والصمت، تخليه عن الملاحظات القاسية والشتائم، غياب ما كان يلجأ إليه من اللكزات والضرب.

أغمض العينين، أحاول أن أتخيل ما جرى له حيث ذهب، تعددت سرحاتى فى تصور المكان الذى اقتادوه إليه، كأن الأرض انشقت وابتلعته، ثم لفظته، فطنت إلى أنه خضع للتعذيب، من الحروق والكدمات والخدوش التى ملأت جسده.

هو ليس عبد العليم الذى أعرفه، إنه شخص آخر، ذابل البنية، بطئ الحركة، ذاهل عما حوله، يرفض محاولات إعادته إلى نفسه، وإلى حياتنا، همنى أن أفعل ما يعيده إلى نفسه، أحزن لجموده الساكن، يشى

بحزن أعجز عن فهم أسبابه، وكيف أزيلها، تعمدت الصراخ فى وجهه كى أنبهه، فيضربنى، يعود إلى ما اعتدت من حياتنا، لكنه ظل على همومه.

تناولنا الإفطار، وضع يده على صدره، وتحشرج بالألم، ثم حل السكون.

قال الطبيب بلهجة فاهمة:

– لا توجد سكتة قلبية.. السكتة فى الدماغ.

صرخت:

– فى القلب أو فى الدماغ.. الرجل مات!

أطعت تحذيرهم بألا أشيعه فى جنازة، ولا أقيم له عزاء.

فرت بنظرها إلى بعيد، كى لا أكتشف الأسى فى ملامحها:

ظل عبد العليم يتردد على مساجد السيدة زينب والحسين والسيدة عائشة والسيدة نفيسة، يظل فى المسجد إلى ما بعد صلاة العشاء، خمنت أنه يقصد آل البيت للتشفع فى إطعامنا الذرية، لا يدعونى لمرافقته حتى لا يحدث ما يرجوه، فأتألم.

كان قد مضى أكثر من عشر سنوات على زواجنا. لم يعد للجنس جاذبيته القديمة، تباعدت الأوقات، حتى تغلب النسيان، ومضات تمليها لحظة استجابة، ثم يستغرقنا النوم.

ألفت ضـــربه لى، أخشـــى – إن توقف عن ضـــربى – أنه لم يعد يحبنى، ربما أغوته امرأة أخرى، أســـتفزه بما يثيره، يدفعه إلى ضـــربى، أطمئن إلى أن حبه لى لم يتبدل، يضـربنى عندما يتصـور تقصـيراً منى، أو أنى لا ألبى أوامره، ربما لم يكن يحبنى، لكننى كنت أحبه.

عرفت أن قســـوته لمداراة ألمه، ضـــربه لى تنفيس عما يعانيه من اليأس والسأم والملل، عرف ما أعرفه: مشكلة عدم الإنجاب تخصـه، ولا تخصـــنى، ذلك ما أثبتته التحليلات والأشـــعة، أدركت أنه يعانى لعدم قدرته على الإنجاب.

ثار لقولى، وهو يطفئ النور:

– لماذا لا تحتفظ بصحتك؟

رفع إصـــبعه من مفتاح النور، مال ناحيتى بعينين ناريتين، لم يهدأ عن ضـربى حتى اسـتعصـى عليه التقاط أنفاسـه. من تحب رجلاً تتقبل نقائصه.

شـــجعته على الجلوس فى الأمفتريون، يبتعد عن كتمة البيت، يغير جواً، يبدل هواء، يشـــاهد حركة الطريق. رابع مرة، أمســـك قلما وورقة، سجل أرقاماً، بسطها أمامى، وقال فى نبرة محذرة:

– الأسعار نار!

تكررت عودتى إلى بنهـا، لا أكـاد أقيم فى بيـت أبى يومين، أو

ثلاثة، حتى يأتى، يعتذر بظروفه، ويعيدنى إلى القاهرة.

حتى بعد أن أقعد المرض عبد العليم، ظل يتصـرف كأنه هو الذى يملك القرار بمفرده، وأن رأيى غير مطلوب.

تأرجحت مشـــاعرى نحوه بين الحب والتألم، ثم تبلورت إثر المحنة التى عاناها، امتزج الحب والإشفاق، صار حباً خالصاً.

تصـورت أن الراحة هى ما سـأحصـل عليه بعد موته، يزول التوقع والقلق والإشـــفاق. العكس اقتحمنى، غمرنى الشـــعور بالفقد والوحدة، أدركت أن عبد العليم كان كل شـــيء فى حياتى، وأن ابتعاده يجعل الحياة بلا معنى، حتى إقامته الســـاكنة فى البيت حمتنى من النظرات إلى الأرملة. ربما اختلف شـــعورى لو أن الله أطعمنى طفلاً. من يطرق باباً ســيغالب التردد لو عرف أن فى الداخل رجلاً، لن تشـــغله صـــحة الرجل أو مرضـــه، المهم أنه رجل، يملأ حياتى، ويجنبنى فضـول الناس وأذاهم.

ذلك ما فطنت إليه بعد أن عدت من المقابر، وصـــرت وحيدة فى الشـقة، عرفت أنى سـأقضـى بقية عمرى دون سـند، حتى لو كان السـند زوجاً مريضاً.

حاولت – من يومها – مواجهة الأمر الواقع، أدبر نفسـى بالمعاش، إن تضايقت أسافر إلى بنها، أقضى أياماً وأعود.

أمسكت رأسها بيديها لحظات، ثم قالت فى صوت متعب:

– أرعى ابنىْ أختى، ربما كان ذلك تصرفهما إن أطال الله عمرى.

اهتز فنجان القهوة فى يدها:

– نحن نفتقد أعزاء رحلوا .. وســـيفتقدنا حين نرحل من يرون أننا أعزاء.

غلظ صوتها بالحزن:

– كان عبد العليم موظفاً فى الشـــركة العامة القابضـــة للغزل والنسيج.

وهشت ما بدا أنه حشرة طائرة:

– تقاعد بالمعاش المبكر.

ووشى تهدج صوتها بتهيؤ للبكاء.

– إذا كان عبد العليم قد تركنى وحيدة فى الدنيا فســـألحق به فى الآخرة.

استطردت فيما يشبه الهمس:

– فى الجنة بإذن الله!

ورنت نحوى بنظرة دامعة:

– وعدنى إن قدر لـه دخول الجنـة أن يظـل على أبوابهـا حتى أصحبه فى دخولها.

شردت فى الفراغ:

– ماذا يحدث فى الجنة؟

غلبنى الحرج والارتباك، عانيت الإحباط لدرجة منعتنى من التفكير.

حدجتنى بعينين يملؤهما الحزن:

– إذا كان الرجل يتزوج حور العين، فماذا تفعل نســـاء الدنيا؟ من يتزوجهن؟ هل يوجد رجال فى الجنة يعقدن على نساء الدنيا؟

تبلدت مشـــاعرى تماماً، لم يعد يشـــغلنى التفكير فى أي شـــيء، أتظاهر بالنظر فيما حولى، كى أتفادى نظراتها.

ربتت ركبتى:

– عبد العليم هو – بإذن الله – زوجى فى الجنة.

وبدا كأنها تستعيد مداعبته لها:

– لا ترتكبى الذنوب حتى تدخلى الجنة، إذا فعلت ما يدخلك النار، فسأكتفى بالتلويح لك من شرفات الجنة. قلت:

– اسمه عبد العليم؟

أومأت برأسها:

– كنت أسبق اسمه بسى.. هو سى عبد العليم.

– بماذا كان يدعوك؟

– جنات.

قالت جنات وهى تنظر إلى الكتب والصحف المتناثرة :

– لم تعد تقرأ؟!

ابتسمت لملاحظتها:

– التأمل قيمة تالية للقراءة.. وأهم منها.

ورنوت إلى بحيرة العسل فى عينيها:

– لا قيمة للقراءة إن لم يصحبها التأمل.

أردفت كالمتذكر:

– بالمناسبة، يتناقلون فى السنترال شائعة بتخصيص التليفونات.

واتجهت إليها بنظرة متحيرة.

قالت بلهجة تشف عن الأسى:

– تجربة عبد العليم فى الخصخصة مؤلمة.

والتمعت عيناها ببريق الحزن:

– أجبروه بالمعاش المبكر على تنغيص حياتى فى البيت.

قلت:

– أخشى الفصل!

شوحت بيدها كمن يطرد ذبابة.

– أنت أصغر من سن المعاش المبكر.

واستعادت عيناها التماع البريق:

– ضعف إرادتك يمنعك من رؤية الحقيقة.

وهزت إصبعها بما يشبه التحذير:

– إذا لم تغامر فلن تحصل على ما تريد.

أدركت أنى أحب نبرة صـــوتها، البحّة الجميلة فى نهاية الكلمات تجذبنى إليها، توقظ فى نفسى ما أنتشى منه، وإن لم أتبينه جيداً، يتخلل ما تقوله إيماءات، تحرك المعانى الغامضـــة فى داخلى. ربما لو أنى تكلمت عن مشـاعرى، هواجســى، أمنياتى، تعوزنى التســمية، تبدو كل الكلمات أضعف من رغبتى فى التعبير.

أعرف أنى لســت وحيداً، وأن ملامســة طرف الخيط هو ما أتمناه، ثم أفلته قبل أن أطبق أصـــابعى عليه، أكتم ما أعددت نفســـى لقوله، البوح بما أعانيه، أتبين ســخف كل شــيء، وأن الصــمت يجنبنى مزالق مؤلمة. أخشى البوح، قد يصطدم بحائط عدم الفهم، والاستغراب، والميل إلى المعابثة.

– لا أريد شيئاً.

– ألا تريد وظيفة أعلى.. زوجة.. إيراداً محترماً؟

– أرفض العنف.

– من تحدث عن العنف؟!

ثم وهى تتأمل أظافرها:

– إن زادت ثقتك بنفسك يسهل عليك اقتحام ما تخشى دخوله.

خفضت نبرتها، وأضافت بصوت هامس:

– من نخاف منه، ربما يكون أشد خوفاً منّا!

وبلهجة مازحة:

– نحن نـذكر الربيع فى بلادنـا بزوابع الخمـاسـين وظهور الصراصير.

ثم وهى تطلق ضحكة قصيرة، رائقة:

– لماذا لا نذكر تجدد الخضرة؟

لاحظت – للمرة الأولى – لون عينيها: بنيتان، صـافيتان، أقرب إلى الاسـتدارة كأنهما لقطة، تشـعان بريقاً اجتذبنى، حرك فى داخلى إحساساً بالراحة والطمأنينة.

قلت، لمجرد أن أتكلم:

– أخشى القرار الغلط.

فى نفاد حيلة:

– تصرف .. لا تحمل الأم وليدها طول العمر.. تتعجل اليوم الذى يمشى فيه بنفسه.

تأملت الثمالة المتبقية فى قاع فنجان القهوة، ثم احتسـته دفعة واحدة.

– لا تطلب من أحد أن يعنى بأمرك.. حل مشكلاتك بنفسك.

حين أبديت ملاحظة عن المخرج السينمائى رأفت عبد المجيد، يسأل عن شقته الكثير من البنات، قالت الست جنات فى تهوين:

– علاقته بالنساء محاولة لتعويض ذكورته الغائبة.

– تقصدين؟

وهى تقطع الهواء بظهر يدها:

– ليس له فى النساء.

حدست أنها عرفت الأمر من قناوى، تكلمه – أوقاتاً طويلة – فى وقفتها على باب الشقة، قامته المتوسطة، الممتلئة، وبشرته القمحية التى تناثر فيها النمش، وشعره الجعد، تركه دون تمشيط، تعرو فكه – وهو يتكلم – رعشة لا إرادية، تتآكل الحروف على شفتيه، فلا تبين فى النطق، يخلط الكلمات، أو يبترها دون أن يستكمل نطقها، يرفض القسم بالله، يكتفى بالقول: صدقنى، يقولها بعفوية تجتذب محدثه، يرتدى جلباباً أزرق، وإن بهت لونه من كثرة الاستعمال.

هل ينكشف ما أعانيه فى لحظة ما، لا أتوقعها.

أنكفئ على نفسى، أسألها، أناقشها، أحاسبها.

تتماوج فى داخلى مشاعر القلق والحيرة والخوف، أعيش الغربة والوحدة والانكسار، تعاودنى – فى فترات متقاربة – رغبة فى البوح،

الاعتراف، تمنيت أن يشـــير على أحد بما يجب أن أفعله، أطرد الميل إلى ما لا أســتطيع أن أبوح به، الســر الذى أخفيته طيلة حياتى، أعبر عن الصــخب الزاعق فى داخلى، كلام كثير، لا تطاوعنى شـفتاى على نطقه.

هل أحدثها عما أعانيه؟ هل تصدق روايتى لو حكيتها؟

لامســت كلماتها رغبة البوح فى داخلى، ســرت فى طرق متقاطعة ملتوية ومســدودة، طالعتنى مفارق وتقاطعات، رؤى يمتزج فيها الضــوء والظل. أخاف أن أبوح، ثم يأتى الغمز واللمز والمعايرة، أفضــل أن أكلم نفسى، أتخيل من أكلمه، أسأله ويجيبنى، يسألنى وأرد عليه.

تنامى الشــعور أنها اقتربت بما يشــجعنى على المصــارحة، ثمة صـوت فى داخلى، يريد أن يبوح بما طال كتمه، لماذا أخجل من البوح، مادمت لم أسئ إلى أحد، ولا أخطأت بما يستدعى المساءلة.

رويت لها الحكاية، كأنها حدثت لشــخص آخر، إذا عجز الإنســان عن تحقيق مـا يحلم بـه، فـإنـه يحرص على كتمـه، لا يبوح بـه، يترك الأمر للظروف، أو يواجه ما يصدمه.

مضــت ســنوات بعيدة على غياب منار عن حياتى، أعادتها مها، جددت حضورها، استرخاءها الهادئ، المستكين، تلبى ما أطلبه، شحبت فى شــمســها الســاطعة كوثر وفردوس، حتى جنات لم تعد فى خاطرى

بالإلحاح الذى اعتدته، تجالسنى، نتبادل الكلام، نشرق ونغرب، وحدها منار تظل هناك.

لاحظت تهيئى للاستطراد، حدجتنى بنظرة متسائلة.

لامست – بعفوية – رغبة البوح، تكلمت عن الصخب الذى لا أستطيع كتمه. تدفقت الكلمات دون ضبط، وبلا اختيار، ما أريد البوح به قلته، تركت نفسى بلا كابح يمنع انطلاقها، حاولت أن أنطق الكلمة الصحيحة التى تعبر عما يشغلنى، عن المعنى الذى استولى على كيانى. لم أكن امتلك شجاعة البوح، ما حدث بالفعل، وما أريده.

قاطعتنى:

– لماذا تتكلم بسرعة؟

لم تكن هذه هى الملاحظة الأولى عن تسارع كلماتى، نبهنى إليها عم سليم الساعى بسنترال المنشية، ونصح المهندس باسم العقيلى أن أبطئ فى كلماتى حتى يسهل فهمى، فسرت الأمر بالخوف من أن يفاجئنى ما لا أتوقعه إن حاولت اختيار الكلمات، يهمنى أن أقول ما عندى، قبل أن يعلو سؤال، أو ملاحظة.

أدرت وجهى، أتقى نظرة عينيها، إن تقاطعت نظراتنا، كنت مأخوذاً باللمعة فى العينين البنيتين، يدفعنى وميضهما إلى إحناء رأسى، كأنى أعجز عن النظر إليهما، التقطت الإشفاق فى عينيها، قلت ما لم

أتصور أنى أقوله لها، بحت بمشاعرى، وما أحاول إخفاءه.

بترت الكلمات لنظرة توجس أطلت من عينيها. أومأت برأســـها، فحاولت أن أزيح حملاً ثقيلاً، لا أعرف كيف واتتنى الكلمات، ولا لماذا قلتها. لم أكن أنا الذى يتكلم، هو ذلك الصـــبى الذى أقعى تحت قدمى منار، يطيل النظر إلى الجســد الممدد، تناوشــه تصــورات يعجز عن فهمها.

شعرت أن الثقل قد انزاح من فوق صدرى.

قالت وهى تطرق طرف الكرسى بإصبعها فى إيقاع رتيب:

– لم تخطئ – كما قلت– مع منار ولا فردوس؟

شـــعرت أن تعبيرات وجهى تفضـــحنى، وقواى تخوننى، اتجهت بنظرتى إلى الناحية المقابلة، لأتخلص من عينيها.

– أغوانى الشيطان مع كوثر..

أطالت الصمت حتى استعدت نفسى، رمقتنى بنظرة لائمة:

– نحن نحمل الشيطان ذنب أفعالنا الشريرة.

وأسندت ثدييها إلى أصابعها، وعدلتهما:

– لو لم يوجد الشيطان.. من نحمّله خطايانا؟

وضغطت بيدها على يدى:

– المرء قد يكون شجاعاً أو جباناً، لكنه يظل – فى كل الأحوال –

بشراً.

وكأنها تذكرت شيئاً:

– هل تحتفظ بالسر لنفسك؟ ألم تخبر أحداً بالفعل؟

اكتفيت بهزة من رأسى.

قالت فى لهجة مهونة:

– لا أرى فيما حدث مشـــكلة.. أغراك موقف بفعلة شـــيطانية، فنفذتها.

كان الألم يقتلنى، لكن الابتسامة ظلت فى موضعها على شفتى:

– والبنت الأولى؟

أومأت برأسها دلالة الفهم.

– إذا كنت فعلت ما فعلت فى لحظات طفولة، فلا ســـبب يدعوك إلى معاودة ما حدث.

وأســـندت راحتيها على ردفيها، ومالت بظهرها إلى الوراء، وهى ترمقنى بنظرة متوجسة:

– نسيتها.. أليس كذلك؟

أيقنت – لثقتى فى ذكائها – أن حالى لم يعد يخفى عنها.

أربكتنى قدرة عينيها على النفاذ إلى داخلى، تستطيع كشف كل ما يعتمل بنفسى، ما يختلج فى صدرى، كأنها تشاهد ما أعانيه، أو يشغلنى. شعرت أن قواى بدأت تخوننى، وأنى عاجز عن الكلام.

رمقتنى بنظرة متفحصة تتبين نيتى:

– أخشى أنك لا تبحث عن تلك الطفلة، ولا حتى من تشبهها، بل تريد .. ما اسمها؟

– منار.

رنوت إليها بلهفة، أنتظر ما ستقوله.

– أنت تريد منار الماضى، منار التى كانت، لم تحاول نسيانها.

تماوجت فى نفسى مشاعر متباينة، الخوف والإحساس بالذنب. هزمنى الشعور باليأس، لم يعد الأمل فى أى شيء موجوداً.

عكست عيناها إخفاقى فى السيطرة على مشاعرى.

– تلك حادثة قديمة، ننساها كأنها لم تكن.

تملكنى الارتباك، لا أستطيع التخلص منه، لم أعرف – وهى تنظر ناحيتى – ماذا يجب أن أقول، كأنى أنتزع الكلمات:

– ألاحظ أنها تعاودنى من فترة.

حدجتنى بنظرة قلق:

– هل تريد تكرارها؟!

شوحت بجانب يدى:

– لا!

راقبت فى عينيها قلقاً واضحاً:

– كنت نسيت. أعادته إلى ذاكرتى بنت فى العمارة.

ثبتت عيناها فى وجهى:

– بنت فى عمارتنا؟!

وأنا أحول نظرتى إلى أرضية الحجرة:

– أسرتها فى الطابق الثالث، قالت إن اسمها مها.

ضربت على صدرها:

– يا مصيبتى!.. مها خادمة الجيران؟ البنت فى عمر حفيدتك؟!

قلبت شفتى:

– لعله حنين إلى الطفولة.

عاودت ضرب صدرها، حدقت فى وجهى بعينين متشككتين:

– سأصدقك إن نسيت ذلك السخف القديم.

تضايقت من نفسى للارتباك الذى ربما ظهر على تصرفاتى.

هل أبدد العمر فى تذكر لحظة أخاف أن أستعيدها؟ فرضها الارتباك، أو أن الارتباك هو حياتى، سحب سوداء تلاحقنى، تبلغ حد الظلمة، لا أتبين منها ما يطمئن خطواتى فى اتجاهها نحوه.

قرأت عن الاكتئاب، غمرنى ما نسبته إليه. إذا كان الاكتئاب هو الملل والضيق والانفعال بلا سبب، فهو ما أعانيه، ربما هو ما أشعر به عندما أبتعد عن الناس، وأخلو إلى نفسى. أذهب – بالكاد – إلى السنترال، وأعود. لا أشارك – حتى بالإنصات – إلى آراء المهندس عاطف غيث، وتعليقات موظفى السنترال، تغمرنى أعراض الشك والتوجس والتوتر والقلق، لا تشغلنى رغبة من أى نوع، كل ما يشغلنى أن أظل وحيداً.

وجدت فى جنات الشخص الذى أحتاج إليه، وإن لم أضع ذلك فى بالى قبل أن تدخل حياتى.

جنات.

صرت أشد ميلاً لقضاء الوقت معها، نتكلم فيما يفد إلى خواطرنا، اختزلت فيها حياتى، أتعجل رؤيتها، لأحدثها عن أحوال السنترال والمواصلات ومشاهدات الطريق، ما جذب انتباهى من عبارات وتصرفات، الأوقات المفرحة والحزينة، إن عصاها التعبير، لجأت إلى حكمة، أو مثل شعبى، تستعيدها مؤمنة بهزة رأسها، ألفت رائحتها، رائحة لا أشمها فى مكان آخر، وإن أعادتنى – أحياناً – إلى شقة الإسكندرية.

تأملت، وحفظت، التكوين الجسدى، وملامح الوجه، خصلة الشعر

النافرة من تحت الحجاب، طريقة الكلام، الإيماءات، التعبيرات باليدين، لحظات ارتفاع نبرات الصـــوت، وخفوتها، فى لحظات الفرحة والحزن، طريقة المشـى، والقعاد، والوقوف، والمشـى. بدت الجونلة التى تصـل – بالكاد – إلى ما فوق الركبتين تناقض الإيشارب الذى أحاطت به رأسها.

عندما حاولت أن أتصـور عناقى لها، غلبنى التوتر، نفضـت رأسـى لتصـور علاقة جسـدية بينى وبينها، شـحب التصـور فى شـخصـيتها، خشيت – إن أذنت – عجزى عن فعل شيء.

أجاهد لمداراة مشـــاعرى، ما أكتمه فى نفســـى. أحاول الفرار من التخيلات: التفاف ســـاعدى حول عنقها فى مشـــيتنا المتجاورة، نتأمل فاترينات المحال فى وسط البلد، أحملها إلى السرير، أنزع حذاءها، أقبل أصـــابع قدميها، أمســـد ســـاقيها براحتي، أفك أزرار البلوزة، أنحى البلوزة والجونلة فى تحسسى جسدها.

هل جاء كل شيء فى أوانه، أو سرقنى الوقت؟!

لو أنى التقيتها منذ سنوات، ربما تغيرت حياتى.

ملأت جنات دنياى.

صارت كل عالمى.

كان عدم التصـديق واضـحاً فى ملامحها وتعبيراتها، حتى بعد أن عادت من عيادة الطبيب.

نزعت الإيشـارب من حول وجهها، كورته، وضـعته على الترابيزة أمامها. تحرص على ارتداء الملابس المحتشـمة، ليسـت العباءة ولا النقاب، بل تايير طويل الكمين، ينسدل إلى نهاية ساقيها. لم أعد أربط بين تصـرفاتها المفاجئة وتوقعات لا تحدث، هى عفوية التصـرفات، لكنها تحرص على الحاجز غير المرئى بينى وبينها، أكتم ما قد يثور فى نفسى من مشاعر صاخبة، ولا أجاوز موضعى.

خلعت الحذاء، ودلكت – وهى تتأوه – أصابع قدمها.

– ثلاث ساعات أنتظر الطبيب.

سألت:

– خيراً؟

– لم أكن عند الطبيب، وإنما كنت عند الجنون.

وهى تصلح بأصابعها من فوضى شعرها:

– زرته ليعالجنى من التوتر، هبّات توتر تفاجئنى، خفت أن تكون نتيجة مرض.

وأسلمت نظراتها لما يشبه الشرود:

– قبلها كنت أشـعر – على فترات متقاربة – بسـخونة مفاجئة،

تصعد من ذقنى إلى رأسى.

ظللت أحدق فيها:

– فاجأنى الطبيب بالقول: هل لديك أصـــدقاء؟ التقط نظرتى المستغربة: أقصد من نشأت بينك وبينه علاقة خاصة.

واتجهت ناحيتى:

– صدقنى، جئت فى بالى، وكدت أنطق اسمك.

ظللت صامتاً، وإن تمازجت الحيرة والنشوة فى داخلى.

لاحظت ارتعاش صوتها:

– تبينت أنه يعنى صداقة لا أريدها.

ربتت ركبتى، وقالت لنظرتى المتسائلة:

– سألنى الطبيب: قلت إنك أرملة؟

أومأت برأسى، وظللت صامتة.

وهو يتهيأ للإنصات:

– هل تأتى الدورة الشهرية فى موعدها؟

حاولت أن أستعيد صوتى:

– أقترب من الخامسة والأربعين.

لم يتخل عن هدوئه:

– عموماً.. مشكلتك لا صلة لها بالإنجاب.

ونقر الفراغ بإصبعه:

– أنت فى حاجة إلى الجنس.

وأنا أشير إلى نفسى:

– أنا أرملة.. يعنى غير متزوجة.

دون أن يغادر نبرته العادية:

– لا شأن للجنس بالزواج..

وقال للدهشة التى ارتسمت فى ملامحى:

– لا تهملى طاقتك الجنسية بلا إشباع.

أحسست بما هو أقسى من الغضب، تمنيت أن تنشق الأرض، وتبتلعنى.

– هذا حرام.

اتجه ناحيتى بنظرة محدقة:

– خلق الله الغريزة لنرضيها.

وجرى على الدفتر أمامه بالإنجليزية:

– قد يكون الجنس وسيلة الشفاء.

همست بالحيرة:

– ألا يوجد دواء.

فى نبرة حاسمة:

– هذا هو الدواء.

ثبتت نظرة جنات على نقطة بعيدة، مجهولة:

– أغضبنى التصور أنى لا أستطيع العيش بدون رجل.

شاب نبرة صوتها استياء:

– لماذا أخضع أفكارى لنصفى الأسفل؟!

أردفت فى استيائها:

– مأساة المرأة أنها أنثى تحيا فى زمن ذكورى.

وعلا صوتها بالبحّة التى أحبها:

– لماذا لا يكون الرجل مثل ذكر النحل، لا أطلب موته، لكننى أطلب ابتعاده!

تعلمت من جنات ما لم أره فى مها، ولا لامسته فى كوثر، ولا فى فردوس، هى الجنة والضوء والظل، أحببتها لحد أنى ألغى التفكير فيها – أحياناً – كامرأة، كأنثى.

إن واجهت مشكلة، بدت لى جنات طوق نجاة فى المالح، تأخذنى – بنصائحها – إلى بر الأمان، يلح فى داخلى ما يضايقنى، أتعجل الوصول إلى البيت لأكلمها بما أعانيه، أعد أسئلة، أتصور أنها ستوجهها لى، وأجوبة أعدها لأرد عليها، لكنها تكتفى بالإصغاء لما قلت، تطيل الإنصات، فأشك أنها تتظاهر بغير ما تفعله، لكنها ترنو

بنظرة مشفقة، تستكمل تصورها بأسئلة أرد عليها، ثم تحدجنى بنظرة كأنها تتفحصنى، تبدى – بعدها – ملاحظة، أو تنصح بما ينبغى فعله، تفطن بسهولة إلى ما تعكسه نظراتى، ما يجول بخاطرى.

صارت لى فى موضع الصديق الذى أودعه أسرارى، أفيد من نصائحها فيما أعانيه من مشكلات، كل منا يحتاج إلى الآخر، ولو للبوح والمسامرة وطلب النصيحة.

بدت مختلفة عن كل من عرفتهم، رجال أو نساء، هى إنسان متفرد، تملك نفساً طيبة، لكن الحاجز غير المرئى لا يأذن بالتجاوز.

يحل الصمت، أشعر أنه لم يعد لدينا ما نتكلم فيه، أترك لتصوراتى اختراع مواقف ومناقشات، أحاول فيها تغليب وجهة نظرى بما يعوض حاجتى الدائمة إلى نصائحها، ربما أمضيت الساعات، أجرى حواراً بينى وبينها، ألتقط الجملة والكلمة، أتهيأ للسماع، أختار ما يجب قوله، أتأمل، أقلب، أستقر على ما أجده صحيحاً.

مسحت بأصابعها تقطيبة جبهتى:

– مالك؟

وأنا أضع يدى على صدرى:

– قلبى.. دقاته متسارعة.

– هكذا الحب!

هززت رأســـى بما يعنى عدم الفهم، عرفت من نظرتها أنها تنتظر أن أقول شيئاً، لكننى لم أجد ما أقوله.

– من هى حبيبة القلب؟!

أخذنى السؤال، لم أكن أتوقعه، فكرت لحظات قبل أن أجيب:

– لا توجد.

أربكتنى نظرتها المتسائلة، كأنها تريد أن تنفذ إلى ما أريد قوله.

– إذا تركت أصدقاء لك فى الإسكندرية، فحاول أن تنشئ صداقات فى القاهرة.

سعد!

لم يكن لى صـديق غيره، هو الذى حافظ على صـداقتنا، أصـر ألا تنتهى، يدركنى الملل، أو أبتعد، تظل البسـمة على شـفتيه فى تواصـل زياراته.

لا أتصـور – فى حياتى – شـخصـاً آخر سـواها، الرفقة والصـداقة والحكى والنصيحة.

لم أحاول سؤالها – حتى لا تصـدنى – عن أمور حياتها بأكثر مما روته لى، وجدت فى نثار كلماتها ما يغنى عن الأسئلة.

حدثتنى عن حبها للأطفال، ومشـــاعر الأمومة التى تحركها رؤية وليد بين يدى أمـه، لا يعرونى الخجل وأنا أســـتمع إليها، ولا تجد فى

نفســـها ما يخجلها من تبديل ملابســـها أمامى، تخفى قلقها من تباعد مواعيد الدورة الشهرية، هل هى أعراض طارئة، أو أن الطمث انقطع؟

ربتت ركبتى بأطراف أصابعها:

– صل على النبى.

وأنا أتأمل الحنان فى عينيها:

– عليه الصلاة والسلام.

– زد النبى صلاة.

– عليه أفضل الصلاة والسلام.

– رأيت فى المنام حلماً، لشدة ما تذكرته تصورت أنه حدث بالفعل.

أضافت إلى ملامحى المنتبهة:

– لقيتنى فى داخل بيت مهجور، أو خرابة، أعانى الخوف مما يحيط بى من أشباح وحيوانات، اختلطت أشكالها القبيحة، فصارت بلا شكل محدد، فى اللحظة التى كدت أموت من الخوف، ظهر فى طرف المكان ضوء كشمس الظهر، توسطه وجه له ملامح عبد العليم، ويهز رأسه بابتسامة تدعونى إلى الاقتراب منه، أو تستأذن فى الاقتراب.

عاودت ربت ركبتى:

– ما تفسير هذا الحلم؟

– أنا أحلم، وأنسى.. لا أحاول تفسير أى شيء!

لم أتدبر السؤال:

– ألا تفكرين فى الزواج؟

طوت قدماً تحت فخذها، ودلت القدم الأخرى فى الهواء:

– لكننى متزوجة.

– أنت أرملة.

شفت عيناها عن التماع ساحر:

– وعدته بأن أظل له.

وهى تمرر جانب يدها على رقبتها دلالة الموت:

– لو أن عبد العليم كان حياً، ما اســـتطعت أن أقف أمام باب شقتك!

وفردت أصابعها الخمسة أمام وجهها دفعاً للحسد:

– النسمة على خدى كانت تضايقه!

تبدلت الشوارع تماماً، ألتقى المظاهرات فى طريقى إلى السنترال، وعودتى منه، يعلو التلويح بقبضات الأيدى واللافتات والشعارات والهتافات، حاذيت شاباً يعتلى كتفى آخر، وانطلق صوته يسبق المتظاهرين بالهتاف: الشعب يريد إسقاط النظام!

أكتفى بإلقاء نظرة عابرة، ثم أواصل السير فى اتجاه شارع الأهرام.

توالت التحذيرات فى الراديو والتليفزيون من محاولات التظاهر، للابتعاد عن المظاهرات، فى اختراقها للخليفة المأمون حتى قصر الاتحادية، خالفت – أحياناً – سيرى اليومى، أمضى فى الناحية المقابلة لشارع الأهرام، أميل من شارع الكوربة حتى شارع الحجاز، أسير بحذاء سور الميرلاند، فى اتجاه جسر السويس، يبدو السنترال فى مدى الرؤية، فأمضى ناحيته، أعود إلى البيت من الطريق نفسه، إجازة يوم الجمعة أمضيها فى السرير، لا أنزل منه إلا لقضاء حاجة فى المطبخ، أو الحمام.

اختزنت كمية من البقول والأرز والمكرونة، أودعت الثلاجة أطعمة أخشى فسادها، تغنينى عن مغادرة الشقة، تظل المظاهرات، وما تحمله من نتائج، بعيدة عن حياتى، يغلبنى الملل، أتمدد فى السرير، لا أقرأ، ولا أشاهد التليفزيون، أو أستمع إلى الترانزستور، أكتفى بالتحديق فى السقف، أشرد فى ما مضى، تسعة وثلاثين عاماً خلفتها ورائى، لم أحقق

شيئاً، ما تصورت أنى سأحققه، أو أسير فى اتجاهه.

لا أذكر الكلمات التى طلبت بها نصيحة الصيدلى، أسفل البيت. أعدت قراءة ما قاله: "تريبتزول ". لحقنى صوته وأنا أميل إلى البيت:

– حبة واحدة قبل النوم.

لم يعد من الحكمة أن أغادر الشقة، ولا البيت، اقتصر الأمر على الاستجابة لطرقات جنات، أجد فيها الونس الذى أفتقده فى الوحدة داخل الشقة، لم أعد أطيق الوحدة، ضاقت نفسى بها، طالت مدة قطع الإنترنت والتليفون المحمول، أستمع – عبر نافذة المنور – إلى حركة الطريق، التفصيلات شاحبة، لكننى – بالتخمين– أفسر ما يجرى، أنتبه إلى اقتراب المظاهرة، تتلاشى الأصوات الهاتفة، أعرف ابتعادها، لا أتبين نوعية الشعارات، وإن أدركت خطورة ما يجرى من أصوات قنابل المولوتوف وطلقات الرصاص والخرطوش ورائحة قنابل الغاز.

قالت جنات:

– تأخرت أمس.. أين كنت؟

ووشى صوتها بالقلق:

– المحمول لا يرد.

وأنا أتحسس جيبى:

– نسيته!

– قلقتنى عليك.

أرخيت عينى حتى لا تكشف ما أحاول مداراته:

– خطفت رجلى إلى ميدان التحرير.

عاودت ضرب صدرها:

– تريد الموت؟!

وتنهدت:

– كنت أظن أنى ودعت القلق برحيل عبد العليم. أعدته لى أنت بما لم أتوقعه.

همست بتهوين:

– الميدان يشغى بالألوف.

وضعت ظهر يدها على جبهتى، تتحسسها:

– ماذا فعلت بنفسك؟!

– أنا لا أمتلك شيئاً أخشى فقده!

التمعت عيناها بالدمع:

– حياتك غالية.

أخفقت فى العثور على كلمات أعبر بها عن امتنانى لتصـــرفها، تميت أن أعانقها، تحركت فى وقفتى تأهباً للفعل، لكننى خشيت أن تجد فى تصرفى ما يغضبها.

وأنا أنظر إلى اللمبة المدلاة من السقف:

– كما فعل بقية الناس.

فطنت جنات إلى ما أعانيه، رغم تصـــورى أنى أجدت إخفاء مشاعرى.

– فى السماء نجمة تبشر بالخير.

ثم وهى تلمس بإصبعها التقطيبة بين حاجبى، كأنها تريد محوها:

– نراها فى الليل إذا خلت السماء من الغيم.

وربتت كتفى:

– حان – فيما يبدو – زوال الغيم.

لست أعرف ما الذى اتجه بى ناحية الميدان.

أشـعر أن شـيئاً ما تغير يصـعب تحديده، لكننى أراه فى الحياة من حولى. لا أشترى الصحف، أتابع الأنباء من التليفزيون، أو فى مناقشات السنترال، وفى ملاحظات الست جنات.

فى شـــقتى، لم أكن أعرف ماذا تفعل المظاهرات خارج البيت. تترامى أصـــوات لا أحاول تبينها، أعرف أنهم يهتفون ضـــد مبارك، اعتدت كلمات المهندس عاطف غيث ضد الرجل فى جلسات السنترال، حواسى كلها تتجه إلى الميدان الذى يغص بالبشر.

يرتبط الميدان فى ذاكرتى بالمظاهرات: فى ثورة ١٩١٩، ضد قوات

الإنجليز عقب الحرب العالمية الثانية، مظاهرة الطلاب – بعد هزيمة ١٩٦٧ – ضد أحكام قادة الطيران، رفض حالة اللاسلم واللاحرب فى ١٩٧٢، انتفاضة الجوع فى أوائل ١٩٧٧، سماها السادات انتفاضة الحرامية. أحداث أخرى كثيرة، شهدها الميدان قبل أن أولد، عشتها، وإن لم أشارك فيها، آخرها ما يجرى هذه الأيام ضد الرجل الذى رفض أبى – يوم ولادتى – أن يختار لى اسمه.

توالى الأحداث ألغى قناعات كنت قد اطمأننت إليها، بدت حقيقة يسهل تصديقها.

تذكرت – وأنا أميل إلى شارع إبراهيم اللقانى – أنى لم أعد ألتقى مها، تسأل عن سقوط قطعة ملابس، تعبر باب الشقة المفتوح نحو السلم، أصادفها فى الشارع، أزمعت أن أجد سبباً لسؤال جنات عن غيابها.

هل تركت أسرتها البيت؟

ترامت هتافات.

سرت إلى جانب الرصيف حتى تبتعد المظاهرة، تعرف العين المتابعة أنى أسير بمفردى، الشوارع الجانبية، والبعيدة عن أطراف المظاهرة، خالية، والمحال القليلة – على الجانبين – مغلقة، وسينما هليوبوليس أوصدت الباب الجرار بالجنازير، وثمة وجوه تطل من النوافذ

المفتوحة.

أخذنى صـوت المهندس عاطف غيث – داخل القاعة الواسـعة – يعلو بالسؤال:

– هل بدأت النهاية؟

كان قد مضـــى أربعة أيام لم يجلس المهندس عاطف فى مكتبه. قال فوزى النمر إنها إجازة عارضـــة، فطنت إلى أنه – ربما – ينزل ميدان التحرير.

قال المهندس عاطف غيث وهو يطل على المظاهرات فى شـــارع جسر السويس:

– إما أن تنجح الثورة، أو يضيع الأمل.

قال قيكتور المطيعى:

– ما حدث مفاجأةً، وإن كنا ننتظره.

قال الحاج السيد البدوى صالح:

– ننتظره ولا نتوقعه.

ضرب المهندس عاطف غيث حافة المكتب بقبضة يده:

– ما حدث كان لابد أن يحدث.

المدرعات فى الميادين، وعلى نواصـــى الطرق. نحيت نظراتى عن عرض الممرضـــة الواقفة أمام سـيارة الإسـعاف بميدان رمسـيس، أجدد

دمى بتبرع لتر لمصابى المظاهرات، الجنود والدبابات فى المسافة بين ميدان عبد المنعم رياض وميدان التحرير، لفنى ارتباك، بدت العودة إلى شارع الجلاء تصرفاً مناسباً.

أغلقت أزرار البلوفر، أحاول اتقاء برد يناير، سرت – وحدى – بين آلاف المتظاهرين والجنود، وباعة البطاطا والفشار والساندوتشات والحلوى والبلح والسجائر وأعلام مصر وأغطية الرأس والبالونات الملونة وعربات الفول والكشرى والترمس ولحمة الرأس والكسكسى وباعة السميط والعرقسوس، ونصبات الشاى، وصوانى عليها أكواب الزنجبيل، يفيد فى نقاء الصوت ليسهل الهتاف، يملؤنى الشعور بالغربة والضياع، بالخواء، أشبه بالبناء المحترق للحزب الوطنى، كل ما كان فى داخلى من مشاعر وأمنيات، انتهى إلى الخواء الذى يتمطى فى البناء المطل على النيل.

ظلت يداى إلى جانبى، أثناء توزيع السندوتشات على المحتشدين، تشككت فى أن تكون مسمومة، أعرف أنهم سيلجأون إلى كل الوسائل لإنهاء ما يجرى.

أول مرة أشاهد زحام الميدان عن قرب، اختلاط الأصوات والروائح وما لا يسبق لى رؤيته.

الحشود مغايرة لما شاهدته فى التليفزيون، زحام من البشر، لولا أن

الناس يحشـــرون – يوم القيامة – عرايا، ما اختلف عن زحام الناس أمامى، وإن فر الناس إلى الميدان، الصـــورة العامة فى التليفزيون بلا تفصـيلات، حتى لو اقتربت العدسـة. المشـهد أمامى، يحفل بالنداءات والهتافات والإيماءات والأســئلة والكلمات المبتورة. ثمة من يطلون من الشـرفات، يلوحون بالأيدى، أو يهتفون، أو يدخلون فى مناقشـات، وثمة من أخذ – بالكاد – جانباً، وبسط جريدة، يصلى فوقها.

سرت فى ظهرى ارتعاشة، لما بدأ الشاب ذو البشرة الشقراء تمسيد ثيابى، لعله الخوف من أن يجد فى جيوبى ما يشى بالخطر.

وجدت منفذاً إلى الميدان، بين الدماء المتجلطة وقطع الحديد والعصـــى المتكســرة والحجارة وأعمدة الإنارة المنزوعة وبقايا الإطارات والسيارات المحترقة والصناديق الفارغة.

تقاطعت اللافتات بالعربية ولغات أخرى، ميزت منها الإنجليزية، وإن لم أعرف بقيتها.

قاومت التردد فى اختراق الحشـــود الهائلة، دفعنى المتظاهرون القادمون من الخلف، أسـلمت نفســى للتدافع، صـرت فى قلب الحشـود تماماً، كأنى ألقيت نفســـى فى بحر لا أرى آفاقه، أمواجه تبعد بى عن الشاطئ، تجذبنى إلى الأعماق.

غمرنى اهتمام لما يحيط بى، ما أنا فى داخله، من الزحام والهتافات والشعارات، اختلاط الوجوه والأعلام، وأسماء ماسبيرو ومحمد محمود ومجلس الوزراء والعباسية والخليفة المأمون، وأسياخ الحديد، والحجارة، وقطع الرخام المنتزعة من الأرض، والإطارات المحترقة، والدخان الخانق، وأوراق الصحف، وأكياس البلاستيك، وبقايا الطعام، والفضلات الآدمية، وكبسولات القنابل، والدماء المتجلطة، والروائح النفاذة.

كل ما حولى كأنه طاقة بخار مكتومة، تهم بالانفجار.

ظلت فى داخلى مشاعر التوقع والقلق والخوف، أتصور الجسد البشرى الهائل يتفتت فى لحظة، يتحول كل شيء إلى فوضى، أواجه ما لا أتصوره، ولا قبل لى باحتماله.

انتفضت لأصوات طلقات مفاجئة، تكاثفت وسط الناس أمامى – فى اللحظة التالية – سحابات من الدخان الكثيف، ما بين السواد والبياض، وصلنى انتشاره بأسرع مما قدرت، أحسست بالدموع فى عينى، واقتحم الدخان مسام جسدى.

ما صلة إسالة الدموع بالاختناق؟

كأن يداً ضاغطة تقبض على عنقى، تكتم صدرى، دارت بى الأرض، لم أعد أعرف أين أنا، ولا ما ينبغى أن أفعل، لا أقوى على التفكير، أو الحركة.

حاولت التراجع، لكننى اصطدمت بالأجساد المتلاصقة، المندفعة. تلفت، أبحث عن مكان للنجاة، منفذ آمن للخروج.

عدلت عن محاولة النفاذ من بين الأكتاف، إذا وقعت على الأرض، فلن أفلت من دوس الأقدام.

شحبت الرؤية، التف كل شيء فى غلالات كثيفة، كأن المتظاهرين أطيافاً يحوطها الغيم.

قال شاب غابت ملامحه:

– القناصة يطلقون الرصاص من أعلى الجامعة الأمريكية.

انقطعت اللحظة عما قبلها، وبعدها، حل شيء بلا ملامح محددة، وبلا انتهاء، لم أستطع مغالبة الخوف، خوف هائل، مسيطر، تملكنى تماماً، كأن أحداً يلاحقنى، أحسست أن ساقي جمدتا فى مكانهما، وأن لسانى التصق بحلقى، ففقدت القدرة على النطق.

تعالى – فجأة – صوت رصاصات، أمسكت – بعفوية – ساعد الواقف جوارى.

حين بدأ المتظاهرون – من حولى – فى الفرار إلى الشوارع الجانبية، جريت بآخر ما عندى، لا أعرف إلى أين، أبواب البيوت والدكاكين – على الجانبين – مغلقة، والنظرات تتسلل – بالفضول – من النوافذ الموارية.

اندفعت – بآخر قوتى – أجاوز إشارة الرجل ذى الجلباب نحو باب البيت، خشيت أن يكون الخطر ماثلاً خلف الباب الموارب.

وقفت – متلفتاً – لا أصـــدق نجاتى من الموت – فى الســـاحة المقابلة لدار القضـــاء العالى، أصـــداء طلقات الرصـــاص وقنابل الغاز، وسارينات سيارات الأسعاف، تترامى عبر الشوارع والبنايات.

حين وجدتنى فى الشـــقة – عقب عودتى من التحرير – تأملت ما جرى.

قالت الست جنات للتأثر الذى عكسه خطاب مبارك:

– لم أصدق كلمة واحدة!

– ربما كان صادقاً.

– حتى ريجان وصفه بالكذاب.

واتسعت عيناها بالغضب:

– إن كان سيرحل.. لماذا لا يحدث ذلك الآن؟

التفت ناحية صوت قناوى فى وقفته على باب الحجرة:

– التقيت مظـاهرة قـادمـة من الخليفـة المـأمون.. اكتفوا بـالنـداء: ارحل!

بدت عليه حيرة، وهو يكثر من إدخال إصبعه فى فتحة أنفه، يتأمل الإصبع، ينفضه بإصبع أخرى.

– من يقصدون؟

صاحت جنات فى عصبية:

– ألا تعرف أن مبارك هو المقصود؟!

قال فى عدم فهم:

– الرجل لم يَقْتل.. لماذا يطلبون عزله؟

وأنا أتحسس الكلمات، أخمن وقعها قبل أن تنطقها شفتاى:

– أسهل شيء إدانة ظلم مبارك.

هتفت فى استنكار:

– لابد أن نحاسبه على ظلمه؟

وشت نبرة صوتها بانشغالها فيما لم تظهره ملامحها:

– لا أبرئ المصريين من قبول تشويه طبيعتهم، وهى أن يرفضوا الظلم.

واتتنى جرأة:

– للحاكم حق الطاعة.

علا صوتها بالانفعال:

– وواجب العدل.

عرفت أنها اعتبرت ما قلت تعاطفاً مع الرجل، قالت:

– لا تدافع عن الشيطان.

وحدجت عينىّ فى صمت، كمن تختبر وقع كلماتها:

– فعل فى أجساد الناس ما هو أفظع من الموت!

وفى صوت يحمل نبرة إدانة:

– قد نستطيع تناسى الماضى لكننا لا نستطيع نسيانه.

خيل لى أنى استمعت إلى حركة فى المنور، هممت أن أفتح الباب، لكن يدى تركت المقبض، خفت أن أواجه ما يؤذى، ولا أستطيع مغالبته.

تركت الباب مفتوحاً، وتمددت على السرير، أرهف السمع لأصوات تترامى من وراء الباب المغلق، عرفت – فى الصباح – أن النوم سرقنى، فغاب ما كنت أخافه.

أزمعت أن يظل باب الشقة – وأنا فى الداخل – مفتوحاً، أصيخ سمعى لكل حركة ناحية باب البيت، أو أطيل وقفتى أمام الشقة، أنصت إلى الست جنات فيما ترويه، أو أسأل قناوى عن حركة الشوارع حول مبنى الاتحادية: هل فتحت، أو لا تزال مغلقة؟

أحاول التأكد من عدم استرقاق السمع خلف الباب المغلق، أخشى المجهول، وغير المتوقع، كأنى أفر من جريمة لا أعرف طبيعتها.

تداهمنى – بلا سبب – هواجس ومخاوف، أفتح التليفزيون عن آخره، أضئ لمبات الشقة، حتى اللمبة فوق الباب الخارجى.

انتبهت على ضغطة الجرس.

كنت أتطلع إلى التليفزيون، وأجرى على وجهى بمعجون حلاقة الذقن. لست من محبى النظر إلى المرآة، حتى حلاقة الذقن التى تشترط مواجهة المرآة، أمارسها فى أى مكان. اعتدت إزالة الذقن دون أن أنظر إلى وجهى، أكتفى بتحسس المواضع الخشنة، وما أزيل من شعر.

اليوم إجازة.

الضغطة الثقيلة على الجرس، تمضى بى نحوه، فى بالى – وأنا أفتح الباب – هيئة الرجل ذى السحنة الجامدة، يسأل عن سكان الشقة، والمترددين عليها، يراجع بطاقة الرقم القومى، يجول – بنظرة متأملة – فى صمت المكان، آخر ما أعتاد سماعه، وأنا أتهب لإغلاق الباب: أبلغنا بكل جديد.

هل لرنين الجرس صلة بوقفتى فى ميدان التحرير؟ هل جاءوا لأخذى، كما فعلوا مع عبد العليم؟

تملكنى التحفز، تأهبت لما تغيب ملامحه، ربما لم تسر حياتى بالكيفية التى أريدها، لكن الأمر يبدو قابلاً للمراجعة والتعديل، يجب أن أضع حداً لكل ما أعيشه، لكل ما يحيط بى، لم يعد أمامى سوى دفن مشاعر القلق والخوف، وإهالة التراب عليها، أزمعت أن أبدو شرساً،

قاسـياً، أخيف الناس، أصـدهم عنى، أردعهم، أفعل ما لا يخطر على بال أحد، ولا توقع أن يصـدر عنى، طبيعتى المسـالمة تمنعنى من الفعل، يسـاعدنى مظهرى القوى على ادعاء القسـوة، أعطى الأوامر بإيماءة أو بإشارة، لا أحد يناقش أو يسأل، يلبون ما أطلب فى استجابة صامتة، ألجأ إلى القوة الهائلة فى داخلى، تملى تصرفاتى، تدفعنى إلى التصـرفات العنيفة والكلمات التى لا أتدبرها والعراك، أوقظ فى أعماقى وحش أريده، مخلوقات الغابة تأكل نفسـها، كل مخلوق يبادر بالتهام المخلوقات الأخرى، يدفع عن نفسه توقعات الأذى.

هذا ما ينبغى أن أفعله.

هززت رأسـه أطرد النوم، ثم أعدت النظر لأتأكد من وقفة قناوى على مدخل الباب، قامته المتوسـطة، الممتلئة، وبشـرته البيضـاء، المنمشة، وشعره الجعد.

– الشركة تريد الشقة.

أحسست بالكلمات على شفتىَ، متثاقلة، عاجزة:

– لماذا؟ هل حدث شيء؟

– ربما يريدونها لنشاطهم.

رفعت صوتى لأتخلص من الارتباك:

– والعقد؟

وهو يفرد كفه فى قلة حيلة:

– إيجار جديد.. يعتذرون عن عدم تجديده.

شعرت بالخوف يتسلل إلى داخلى، خوف غامض، لا أدرى بواعثه، يستقر فى أعماقى، تملكنى الخوف، أحسست بتيبس شفتىّ. لم أكن واثقاً من قدرتى على التصرف بما يعيد كل شيء إلى موضعه، أشعر أنى سأفقد شيئاً غاليا، لن أستطيع استعادته.

لم أجد ما أقوله للرجل، اختلطت المعانى فى رأسى، فغابت الكلمات، حاولت أن أسيطر على نفسى، أتماسك، لا يبدو علىّ شيء مما بداخلى، أعرف أنه ينقل أوامر رؤسائه، شعرت أن جسدى يثقل، لا يطيعنى، وما يشبه التنميل يسرى فى أطرافى، بدت كل الأشياء – أمام عيني – سخيفة، ومملة، وأنى مثل طائر عاجز عن الطيران.

ألقيت نظرة شاردة – من وراء قضبان نافذة المطبخ – على الساحة الترابية الصغيرة، خلف البيت.

إلى أين؟

هل تفارقنى جنات؟ كيف أحيا بدونها؟ هل يتاح لى السكن فى شقة كأنها دنيا صغيرة، لا صلة لها بالعالم من حولها؟ جزيرة يلامس أطرافها موج البحر، وإن ظلت فى عزلة عنه؟

جنات وحدها تملأ حياتى، الأسئلة المشفقة، الإنصات، العين التى

تكشف ما بالنفس، تهوّن، أو تدين، أو تنصح بالفعل الصحيح؟

لا أتصور أنه سيأتى وقت لا أراها فيه.

ماذا يمكن أن أعانيه أو أواجهه، لو لم تكن جنات فى حياتى؟ لو أنها لم تقدم الود وكلمات النصح؟

غابت التصورات عن علاقة بينى وبينها، تلاشت، لا أتوق إليها، لكننى سأفتقد الفهم والإحساس الدافئ والحنان.

هل يختفى ذلك كله، فأعود إلى ما تصورت أنى فارقته، يحدث ما يقطع الهدوء الذى أعيشه فى القاهرة؟

لم يكن قلقاً ولا خوفاً ولا يأساً، هو أقوى من ذلك كله، شعرت أنى فقدت ما يربطنى بما حولى، بدت الحياة بلا معنى، والدنيا كريهة، لا تحتمل.

فكرت فى أن أفعل شيئاً، أى شيء، للتخلص مما أعانيه.

لم أقدر الاحتمالات ولا النتائج. بدا ما سأقدم عليه حلاً وحيداً، ينهى الإحباط والفشل والقلق والخوف والمشاعر التى تجعل الحياة مستحيلة.

عاودنى الخاطر من قبل، أجد فيه خلاصاً من متاعب كثيرة، ما لا أستطيع التغلب عليه.

قفزت الفكرة إلى ذهنى – ذات عصر – وأنا أميل من شارع إبراهيم

اللقانى إلى شـارع الأهرام، خاطرة وامضـة تداخلت فى انشـغالى بإعداد ما تختزنه الثلاجة، جاءت الفكرة – بعد ذلك – فى العديد من المواقف، وتلاشـــت، ثم عاودتنى فى مواقف أخرى، ألحت كأنها لن تفارقنى، بدا العالم ضيقاً وسخيفاً.

كيف تفطن جنات إلى فعلتى؟

تطرق الباب، فلا أرد، يسألون فى السنترال، تضيف إلى السؤال – وهى تضـــغط الجرس – قلقاً، تطل من نافذة المنور، تتأكد أنى لم أفتح نافذتى المجاورة.

لن يحزن من يعرفوننى، أو أنهم ســيتأثرون قليلاً، لأن معرفتى بهم عابرة، صمتى فى جلسات السنترال لن يخلف ما يستعيدونه.

حتى جنات، قد أســبب لحياتها ارتباكاً، وربما تغضــبها فعلتى، أو يحزنها اختفائى من هذه الدنيا، تحزن لذلك الطارئ فى حياتها، ثم تنسى رقدتى على طاولة التشــريح فى المســتشــفى، أو فى مقابر الصــدقة. ارتباكى الدائم قد يظل فى ذاكرتها أياماً قليلة، ثم تنسى.

تناولت حبات التريبتزول من فوق الكومودينو، فككتها، تأملتها على راحة يدى، أزمعت أن أهمل الإرشادات، حبة واحدة كل مساء، عشرون حبة أجرعها دفعة واحدة، وينتهى الأمر، لا منار ولا كوثر ولا فردوس ولا مها، ولا خوف أو قلق أو مؤامرات أو عنف أعجز عن مواجهته، لا

توقعات بلا نهاية. حتى تحذيرات جنات ونصـــائحها، بلا قيمة، أشـــبه بالنصائح التى يرددها الشيخ لمن وسد التراب.

قربت الحبات من فمى، أذكر قول الصـــيدلى: حبة واحدة تكفى، أذكر تحذيرات الروشــتة : لا يصــرف، ولا يكرر صــرفه، إلا بتعليمات الطبيب.

أغمضت عينيّ، حاولت مغالبة ارتعاشة الشفتين، ثم أهملت تساقط الحبات من يدى.

محمد جبريل

مصر الجديدة – ديسمبر ٢٠١٣

مؤلفات محمد جبريل

روايات:

١ – الأســوار – الطبعة الأولى هيئة الكتاب ١٩٧٣– الطبعة الثانية – مكتبة مصر ١٩٩٩

٢ – إمام آخر الزمان – الطبعة الأولى ١٩٨٤ مكتبة مصـر – الطبعة الثانية ١٩٩٩ دار الوفاء لدنيا الطباعة بالإسكندرية.

٣ – من أوراق أبى الطيـب المتنبى – الطبعـة الأولى١٩٨٨ – هيئـة الكتاب – الطبعة الثانية مكتبة مصر ١٩٩٥

٤ – قاضى البهار ينزل البحر – هيئة الكتاب ١٩٨٩

٥ – الصهبة – هيئة الكتاب ١٩٩٠

٦ – قلعة الجبل – روايات الهلال ١٩٩١

٧ – النظر إلى أسفل – هيئة الكتاب ١٩٩١

٨ – الخليج – هيئة الكتاب ١٩٩٣

٩ – اعترافات سيد القرية – روايات الهلال ١٩٩٤

١٠ – زهرة الصباح – هيئة الكتاب ١٩٩٥

١١ – الشــاطئ الآخر – مكتبة مصــر١٩٩٦ – الطبعة الثالثة هيئة الكتاب٢٠٠٢ – ترجمت إلى الإنجليزية.

١٢ – أبو العباس، رباعية بحرى – مكتبة مصر ١٩٩٧

١٣ – ياقوت العرش، رباعية بحرى – مكتبة مصر١٩٩٧

١٤ – البوصيرى، رباعية بحرى – مكتبة مصر ١٩٩٨

١٥ – على تمراز، رباعية بحرى – مكتبة مصر ١٩٩٨

١٦ – الحياة ثانية – دار الوفاء لدنيا الطباعة ١٩٩٨

١٧ – بوح الأسرار – روايات الهلال١٩٩٩

١٨ – المينا الشرقية – مركز الحضارة العربية ٢٠٠٠

١٩ – مد الموج.. تبقيعات نثرية – مركز الحضارة ٢٠٠٠

٢٠ – نجم وحيد فى الأفق – مكتبة مصر ٢٠٠١

٢١ – زمان الوصل – مكتبة مصر ٢٠٠٢

٢٢ – ما ذكره رواة الأخبار عن سيرة أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله – روايات الهلال٢٠٠٣

٢٣ – حكايات الفصول الأربعة – دار البستانى ٢٠٠٤

٢٤ – زوينة – الكتاب الفضى ٢٠٠٤

٢٥ – صيد العصارى – دار البستانى ٢٠٠٤

٢٦ – غواية الإسكندر – روايات الهلال ٢٠٠٥

٢٧ – الجودرية – المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٥

٢٨ – رجال الظل – دار البستانى ٢٠٠٥

٢٩ – أهل البحر – هيئة الكتاب ٢٠٠٧

٣٠ – كوب شاى بالحليب – دار البستانى ٢٠٠٧

٣٠ – مواسم للحنين – دار البستانى ٢٠٠٩

٣١ – البحر أمامها – روايات الهلال ٢٠٠٩

٣٢ – صخرة فى الأنفوشى – روايات الهلال ٢٠١٠

٣٣ – مختارات من مؤلفات محمد جبريل (اعترافات سيد القرية. من أوراق أبى الطيب المتنبى. ما ذكره رواة الأخبار عن سيرة أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله. قلعة الجبل. الجودرية) ٢٠١٠

٣٤ – عناد الأمواج – روايات الهلال ٢٠١٢

٣٥ – ديليت – كتاب الرافد ٢٠١٣

٣٦ – مدينة تخصه – دار الكتب والوثائق القومية ٢٠١٣ – موقع حكايا الإلكترونى ٢٠١٥

٣٧ – أحمد أنيس.. ظلى الضائع – روايات الهلال ٢٠١٣

٣٨ – ديليت – ٢٠١٣ كتاب الرافد

٣٩ – ذاكرة الأشجار – دار الحياة ٢٠١٤

٤٠ – مقصدى البوح لا الشكوى – هيئة قصور الثقافة ٢٠١٥

٤١ – حلق وحيداً – المجلس الأعلى للثقافة ٢٠١٦

مجموعات قصصية:

١ – تلك اللحظة – لجنة النشر للجامعيين ١٩٧٠

٢ – انعكاسات الأيام العصيبة – مكتبة مصر ١٩٨١ – ترجمت بعض قصصها إلى الفرنسية.

٣ – هل – هيئة الكتاب ١٩٨٧– ترجمت بعض قصصها إلى الإنجليزية والماليزية.

٤ – حكايات وهوامش من حياة المبتلى – هيئة قصور الثقافة ١٩٩٦

٥ – سوق العيد – هيئة الكتاب ١٩٩٧ – ترجمت بعض قصصها إلى الماليزية.

٦ – انفراجة الباب هيئة الكتاب١٩٩٧ – ترجمت بعض قصصها إلى الماليزية.

٧ – حارة اليهود – هيئة قصور الثقافة ١٩٩٨

٨ – رسالة السهم الذى لا يخطئ – مكتبة مصر ٢٠٠٠

٩ – موت قارع الأجرس – هيئة قصور الثقافة ٢٠٠٢

١٠ – ما لا نراه – هيئة قصور الثقافة ٢٠٠٦

١١ – أخبار الوقائع القديمة – هيئة قصور الثقافة ٢٠٠٩

١٢ – فى الليل تتعدد الظلال – كتاب اليوم ٢٠١٠

١٣ – باب العزيزية – هيئة قصور الثقافة ٢٠١٢

سيرة ذاتية:

١ – حكايات عن جزيرة فاروس – دار الوفاء لدنيا الطباعة ١٩٩٨

٢ – الحنين إلى بحرى – كتاب الهلال٢٠١١

٣ – أيامى القاهرية – هيئة قصور الثقافة ٢٠١٤

دراسات:

١– مصـر فى قصـص كتابها المعاصـرين (دراسـة) الكتاب الحائز على جائزة الدولـة التشـجيعية – الجزء الأول – الطبعة الأولى ١٩٧٢ المكتبة العربية – الطبعة الثانية – مكتبة الأسرة.

٢ – مصـر فى قصـص كتابها المعاصـرين – الجزء الثانى – مكتبة الأسرة.

٣ – مصـر فى قصـص كتابها المعاصـرين – الجزء الثالث ٢٠١٥ – هيئة الكتاب.

٤ – مصر.. من يريدها بسوء؟ (مقالات)١٩٨٦ – دار الحرية.

٥ – نجيب محفوظ.. صـداقة جيلين (دراسـة) ١٩٩٣ هيئة قصـور الثقافة – الطبعة الثانية ٢٠٠٦ مكتبة مصر.

٦ – السحار.. رحلة إلى السيرة النبوية (دراسة)١٩٩٥ مكتبة مصر.

٧ – آباء السـتينيات.. جيل جنة النشـر للجامعيين (دراسـة)١٩٩٥ مكتبة مصر.

٨ – قراءة فى شـخصـيات مصـرية (مقالات)١٩٩٥ هيئة قصـور الثقافة.

٩ – مصـر المكان (دراسـة فى القصـة والرواية)١٩٩٨ هيئة قصـور الثقافة – الطبعة الثانية ٢٠٠٠ المجلس الأعلى للثقافة – الطبعة الثالثة٢٠١٢ دار الكتب والوثائق القومية.

١٠ – البطل فى الوجدان الشـعبى المصـرى (دراسـة)٢٠٠٠ هيئة قصور الثقافة.

١١ – الصوت الهامس يعلو(دراسة نقدية سوسيولوجية) ٢٠٠٧ رابطة الأدباء بالكويت.

١٢ – سـقوط دولة الرجل (دراسـة فى القصـة والرواية)٢٠٠٧ دار البستانى.

١٣ – ملامح مصرية (مقالات) ٢٠٠٨ كتاب الجمهورية.

١٤ – للشـمس سـبعة ألوان (قراءة فى تجربة أدبية)٢٠٠٩ كتاب الجمهورية

١٥ – مصر الأسماء والأمثال والتعبيرات – كتاب الجمهورية٢٠١٠

١٦ – نعم.. مصر هى بيت أبى (مقالات)٢٠١٢ كتاب الجمهورية.

كتب عن المؤلف:

١ – **الفن القصـــصـــى عند محمد جبريل** – مجموعة من الباحثين – مكتب منيرفا بالزقازيق ١٩٨٥

٢ – **دراسات فى أدب محمد جبريل** – مجموعة من الباحثين ـــ مكتب منيرفا بالزقازيق ١٩٨٦

٣ – **البطل المطارد فى أدب محمد جبريل** – د . حسين على محمد – دار الوفاء بالإسكندرية ١٩٩٩

٤ – **فسيفساء نقدية: تأملات فى العالم الروائى لمحمد جبريل** – د . ماهر شفيق فريد – دار الوفاء بالإسكندرية ١٩٩٩

٥ – **محمد جبريل.. موال ســـكندرى** – فريد معوض وآخرون – كتاب سمول ١٩٩٩

٦ – **استلهام التراث فى روايات محمد جبريل** – د . سعيد الطواب – دار السندباد للنشر ١٩٩٩

٧ – **تجربة القصة القصيرة فى أدب محمد جبريل** – د . حسين على محمد – كلية اللغة العربية بالمنصـــورة ٢٠٠١ – الطبعة الثانية: أصوات معاصرة ٢٠٠٤

٨ – **فلسفة الحياة والموت فى رواية " الحياة ثانية "** – نعيمة فرطاس – أصوات معاصرة ٢٠٠١

٩ – **محمد جبريل: مصـر التى فى خاطره** – حسـن حامد – أصـوات معاصرة ٢٠٠٢

١٠ – **سـيميائية العقد فى رواية " النظر إلى أسـفل** " لعبد الرحمان تبرماسين – العطرة بن دادة – أصوات معاصرة – العدد ١١١

١١ – **التراث والبنـاء الفنى فى روايات محمد جبريل** – د . سـمية الشوابكة – هيئة قصور الثقافة. ٢٠٠٥

١٢ – **المنظور الحكائى فى روايات محمد جبريل** – د . محمد زيدان – أصوات معاصرة ٢٠٠٥

١٣ – **بنيـة الخطـاب الروائى فى أدب محمـد جبريـل: جـدل الواقع والذات: النظر إلى أسفل نموذجاً** – د . آمال منصور – أصوات معاصرة ٢٠٠٦

١٤ – **محمد جبريل ألق الوجدان المصـرى** – فرج مجاهد – أصـوات معاصرة ٢٠١٢

رسائل جامعية:

١ – **التراث والبناء الفنى فى أعمال محمد جبريل الروائية** – رسالة دكتوراه للباحثة سمية سليمان على الشوابكة – كلية الدراسات العليا بالجامعة الأردنية – إبريل ٢٠٠٤

٢ – **مستويات السرد وأشكاله فى روايات محمد جبريل** – رسالة ماجستير للباحث أحمد محمود فرج أحمد – كلية الأداب – جامعة الإسكندرية ٢٠٠٦

٣ – **بناء الشخصية الروائية فى أعمال محمد جبريل** – رسالة دكتوراه للباحثة مديحة حمدى عبد العزيز– كلية الآداب جامعة طنطا٢٠٠٩

٤ – **صورة المرأة فى روايات محمد جبريل** – رسالة ماجستير للباحثة أمل عبد الله – كلية التربية جامعة دمنهور ٢٠١٠

٥ – **تداخل النصوص فى روايات محمد جبريل، دراسة تحليلية** – رسالة دكتوراه للباحث أسامة شمعون – كلية الألسن جامعة عين شمس ٢٠١٣

٦ – **معالم الواقع المعيش فى القصة القصيرة الأردية والعربية – " إيم مبين ومحمد جبريل " نموذجين** – رسالة دكتوراه للباحثة نعمة

مصـــطفى إبراهيم الجنايني – كلية الدراســـات الإنســـانية . جامعة الأزهر فرع البنات٢٠١٤

٧ – **أثر البحر فى تشـــكيل روايات محمد جبريل** " رباعية بحرى نموذجاً "رسـالة ماجسـتير للباحثة نسـرين تميم عبد الله سـليمان – كلية الآداب – جامعة بنها٢٠١٥

٨ – **الشـخصـية فى روايات محمد جبريل** – رسـالة ماجسـتير للباحثة أسماء عبد الله عباس – كلية الآداب جامعة المنيا ٢٠١٦

٩ – **الآخر فى الرواية السـكندرية المعاصـرة، محمد جبريل نموذجاً** – رسـالة ماجسـتير للباحثة شـيماء عبد المحسـن خليل شـرف – كلية الآداب جامعة الإسكندرية٢٠١٦